وهم سبق الرؤيه

عماد رشدي

وهم سبق الرؤيه
عماد رشدي
تصميم الغلاف : عبير محمد
تدقيق لغوي: عبدالله أبو الوفا
رقم ايداع: 2016/25441
ترقيم دولي: 978-977-6594-03-6

دار فصلة للنشر والتوزيع
العزيزيه - منيا القمح - مصر
٠١٠٦٧٠٠٠٧٠١
fasla.pub@gmail.com
FB .Com/Fasla .Pub

جميع حقوق الطبع و النشر محفوظه

الطبعه الاولي يناير ٢٠١٧
الطبعه الثانيه يناير ٢٠١٨

جميع حقوق النشر محفوظه لدار فصلة للنشر و التوزيع
إن أي تصوير أو اعادة طباعه أو نشر بشكل ورقي أو الكتروني أو ترجمته أو تسجيله صوتيا بدون إذن كتابي مسبق من الدار يعرض صاحبه للمسائله القانونيه

وهم سبق الرؤيه

عماد رشدي

فصلة
للنشر و التوزيع
Fasla Publishing & Distribution

إهداء

هي لكِ حتى وإن لَمْ تصبحي لي.

هل تجرعت تلك القشعريرة التي انتابتك عندما تنبهت لموقف قد ألممت به من قبل!

صُعقت مُضطرب، جَاحِظ العينين، وقد ملأ فراغ عقلك بعض الأسئلة التي لَمْ تَجد لها إجابة.

متى رأيت هذا الموقف من قبل؟

أين رأيت هذا الموقف من قبل؟

بالفعل يا صديقي لكل منا أحداث يقف الزمن عندها بينما تدور عقارب الساعة.

(ا)

وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ.

لَمْ أعد أحتاج إلى منبه يُقظني بل لعبت الكوابيس هذا الدور!
استيقظتُ في صباح اليوم الثاني من شهر نوفمبر،عندما انحسر ستار نافذة الغُرفة مُعلنًا عن قدوم أشعة الشمس، فأظهرت قسمات وجهي، فاتحٌ عينيّ الخضرواتين مُستيقظًا من نوم غططت فيه بعمق. لَمْ أستشعر مرور الوقت حتى تحسست ثقل جفني وهي تفتح ببطء، وبحركة لا إرادية هدفها ملء رئتي بالهواء، تثائبت حينما أرهفت السمع لصوت من غرفة الطهي عابرًا جنبات طرقة المنزل إلى غرفتي قائلًا:
- متخرجش إلا أما أحضرلك الأكل يا آدم. قالت والدتي.
لم أعر اهتمامًا لما سمعت. تحاملت على ذراعي لكي أزيح الغطاء القرطفي السميك الذي كنت ألتحف به، ووسوست بشفتي لكي أستعيذ بربي من حلم اطلعت عليه ولَمْ أتذكر أحداثه جيدًا، وفي غرفة خيم الهدوء فيها ودمس الظلام جنباتها لَمْ يكن بها إلا مكتبة كُنت أغوص فيها عند شعوري بالضيق، فكانت شخصيتي المزاجية تجعلني أكُف عن الثرثرة خارج كُتبي، يقبع أمام المكتبة مكتب تناثرت عليه بعض الأوراق التي يعلوها قلم يقف حائلًا حتى لا تتطاير، وحوض أسماك تعددت ألوانها، فمنهم الزهري والقرمزي ومنهم المائل للاصفرار، ومرآة أصطدم بها كل صباح لأستطلع هيئتي، وبعض الصحف والمجلات مبعثرة على الأرض كانت تتكون غرفتي.
فردت ظهري لأتمطى مُحدثًا بعض الطقطقات، ونهضت من الفراش وأنا أقاوم استكمال نومي، تحسست بأنامل رجلي أسفل الفراش لأجد خُف

ثبته في قدمي، وأنا أتأمل صورتي في المرآة، بالكاد كبرت وكبرت همومي وبدا واضحًا على وجهي الشحوب، قاومت جلستي وترنحت كالسكارى إلى الحوض المجاور لغرفتي، بللت وجهي بالماء الفاتر، وفركت فروة رأسي بالماء ثم انغمست بداخل المنشفة لأتجفف. رجعت إلى غُرفتي لأستطلع في المرآة عيني الخضرواتين الهذيلتين، وشحوب وجهي المصفر، وذقن لَمْ تنبت شعيراته بعد، فتحت دولابي وراح بؤبؤاي يتنقلان بين الملابس حتى التقط سروال ذا لون أزرق غامق، وقميصًا بني تتخلله خطوط بيضاء، لمحت الساعة المُعلقة فوق حوض الأسماك فوجدت عقاربها تُشير للثامنة إلا ربع، فهرولت لارتداء ملابسي، حتى لا أتأخر عن الميعاد المُحدد لعملي، حيث كُنت أعمل كمحاسب مالي للشركة المصرية العالمية للاستيراد والتصدير، أودعت يدي في جيب السروال والتقط هاتفي لألمس شاشته لكي أبحث عن رقم صديقي مُراد وباشرت الاتصال به قبل أن أستقل المصعد.

أنهى مُراد اتصاله معي بعد أن سألته عن الأوراق التي طلبت أن يُنجزها لي لانشغالي ببعض الأمور الهامة، أوضح الانتهاء منها وهو في مقر الشركة ينتظر قدومي.

دائمًا ما كان مُراد الاستيقاظ مبكرًا مِن عاداته، مفعمًا بالحيوية يرتشف فنجان قهوته على موسيقاه الفرنسية المحببة له، وهو يشتم نسيم الفجر العليل، ويستطلع قمره المستنير، والهدوء الذي يعم المكان في هذا الوقت تحديدًا، والهواء النقي الذي ينسل بين فتحتي أنفه دون فائدة للشعر المثبت بها لفلترة الهواء، فهو يُحب أن يستطلع الصباح وصفاء سمائه وإشراق الشمس التي تضيف الدفء للمكان من حوله،

على الرغم مِن كرهه للعالم المحيط إلا أن قلبه كان ينبض بالتفاؤل، صبور وطموح يحب عمله ويحب من حوله.

تربطنا صداقة قوية حيث ترعرعنا عليها في السنوات الدراسية الابتدائية، علاقة حب متبادلة بين صديقين لَمْ يفترقا مُنذ السادسة من العمر، حتى

تدرجنا معًا لنتخرج من كلية التجارة جامعة الأسكندرية، حتى واصلنا صداقتنا بالعمل في الشركة المصرية العالمية للاستيراد والتصدير.
لَمْ يشفع نومه مُبكرًا من الهالات السوداء المتمركزة أسفل عينيه التي كانت تتلون للبني عندما تشع الشمس عليها، كان له بنيان لَمْ يكُن بالطول الفارع ولا القصر تتوسط قامته، وبشرة بيضاء تزينها بقع صغيرة من النمش البني تلفت الانتباه، وشعر كبير مموج يتطاير خلف عنقه وعينان ضيقتان، ذو شخصية مرحة في بعض الأحيان، وجاد مُحب لعمله في أحيان أخرى، يُحب الصلاة ويذهب للكنيسة بانتظام أيام الآحاد، وحضور قُداس المناسبات حتى عندما كان يتعارض مع وقت عمله.
كعادتي التي لَمْ أعرف سواها، مُتأخرٌ، أسابق الوقت حتى يتسنى لي الوصول في موعدي الرسمي للعمل، أزحت الغطاء عن سيارتي البيضاء لتنتفض أتربتها في وجهي فألعن كُل جُنيه دُفع فيها، أستقل سيارتي التي تعددت مُخالفتها المرورية، وأبحت لقدمي أن تُداهم دواسة الوقود ليزداد مؤشرعدادها، دائمًا ما كان يحلو لي أن أُعلي بصوت الموسيقى لتطبق في أذني، وتُزيح الضوضاء من حولي. أغلقت نوافذ السيارة التي لا تُتيح لأحد رؤيتي من الخارج، وبينما كُنت أستمع وأستمتع بالموسيقى بدا لي اهتزاز هاتفي المحمول الصامت؛ فالتقطه لألمح بعيني مَنْ المُتصل، ثوانٍ قليلة أمسكت فيها هاتفي كانت كفيلة بقدوم سيارة من الجهة الأخرى، حين عبر الطريق طفل صغير راكضًا كأنه مُنوم مغناطيسيًا وراء كلب مُشرد يلهس مُسترسلًا في لعابه، اتسعت حدقتاي وأنا أحاول استيعاب الموقف في غضون ثوانٍ قليلة محاولًا مفاداة الطفل، ففقدت السيطرة على أعصاب يدي لتخفف الـ (air bag) مِن الاصطدام بالسيارة التي تسير بالجهة الأخرى لأنجو بأعجوبة من حادثة جعلت السيارة رأسًا على عقب، ولَمْ تنج من الارتطام والخدوش التي لونتها، عمت الفوضى أرجاء المكان من حولي، والتف البشر حول السيارة كأنهُم يُشاهدون مشهدًا سينمائيًا لفيلم أكشن، زاغت عيناي وأنا بداخل السيارة حتى كدتُ أفقد الوعي عندما

رأيت جرح غائر في ساعدي الأيمن، وبعض الكدمات في ساقي المخدوش، وجرح آخر في رأسي خلف بعض الدماء التي تسللت إلى وجهي في خيوط رفيعة حتى انتشلني أحدهم خارج السيارة التي انقلبت في مشهد مأساوي خرجت منه بأقل الخسائر.

امتدت يد أحد المُتابعين ببعض القطن الطبي ونثر على جُرحي بُن ليمنع نزيف الدم كُنت في حاجة إلى كافيينه، وتم سكب بعض المُطهرات الحارقة على جراحي لتخفيف الآلام حتى جاءت سيارة الإسعاف بصوت بوقها المُزعج وانتقلت بي إلى المستشفى، وحين وصلت ألقوني في حجرة موحشة كانت تُشبه تلك الغُرف التي أشاهدها في أفلام الرعب، كان يوجد بها نافذة كُسر زجاجها ودرفتيها الخشبيتين تبعثان الضوضاء كُلما ارتطم بها الهواء، أقبلت مُمرضة بعد قُرابة النصف ساعة، دلفت الباب وهي تحدجني بوجهها الدائري، كانت ذات عينين عسليتين، وبشرة بيضاء خالية من أي شوائب تعكر صفوها، وشعر قاتم السواد يظهر نصفه من قبعة بيضاء، قامت بوقف نزيف رأسي وساعدي حتى دلف باب الغرفة طبيب تقززت من شعر لحيته الطويل الخشن ومعطفه الأبيض المُتسخ المُمتلئ بعبق رائحة كريهة، أقبل مُمسكًا زجاجة صغيرة لها أنبوب طويل وبدأ يضغط عليها مُتمركزًا على موضع الجُروح فعرفت أنه بنج فيما بعد، أجرى جراحة سريعة لعدد من الغرز كأنه يحيك معطف جديد ليستبدله بمعطفه المُتسخ، انقضت ساعتين لَمْ أستنشق فيهما غير رائحة المُطهرات الكريهة وثيابي المخدوشة والمُلطخة بالدماء، حينما غادرتُ المستشفى لم تُساعدني قواي على القيادة، فأوقفتُ تاكسي رمقني سائقه باشمئزاز، عندما ركبت شردتُ لوهلة وفجأة اندهشت وأنا أعيد ترتيب الأحداث حتى استشعرت مرور هذا الحادث علي من قبل، أو أنني حلمت به من قبل، لَمْ أعرف، ولَمْ أقدر على التحديد!

نزلت من التاكسي بعدما حاسبت سائقه ووقفتُ للحظات ناظرًا لأعلى مُتأملًا تلك العمارة العتيقة التي يوضع عليها لافتة مُضاءة كُتب عليها.

عيادة الدكتور: لطفي السيد.
حاصل علي دكتوراة في الأمراض النفسية جامعة عين شمس حاصل علي زمالة الأكاديمية الفرنسية وحاصل علي درجة استشاري في الأمراض النفسية.
"الأسانسير مُعطل".
يا إلهي! وسوست بصوت خافت لينهال سبابي على الطبيب وأصحاب العمارة، ولَمْ تسلم نظرة خُبث بواب العمارة أيضًا، خمس طوابق كانت كفيلة لأقف أمام السكرتير مُغرقًا يتصبب عرقي المُنهال، وثيابي بالية وآثار الدماء تُلطخ قميصي قبل أن يسألني السكرتير بتلهُف:
- مالك يا أستاذ آدم في إيه؟
- مفيش يا حسن، عملت حادثة.
- الحمد لله إنها جت سليمة.
نظرت إلى دمائي وكُم قميصي المتدلي وذراعي المخدوش وأجبت بمزحة:
- أمال لو مش سليمة يا حسن! كُنت عايزني أجي لك إزاي على نقالة!
قهقه قائلًا:
- طيب أتفضل أستريح لغاية ما الدكتور يخلص الحالة اللي معاه.
- فاضل كتير؟
- ربع ساعة. أجيب لك أي حاجة طيب؟
- يا ريت فنجان قهوة مظبوط.
- تمام.
حسن، شاب عشريني تخرج من كلية فنون جميلة ليكون سكرتير طبيب نفسي! أهكذا يعطي أصحاب الفنون فنونهم للمرضى!
يستقبل وجهي يومين على أقل تقدير في الأسبوع، مُنذ شهور وأنا أقبع تحت إشراف طبيبه، حتى تبدلت بشرتي للون الداكن، وقسمات وجهي تراكمت فوق بعضها من الشحوب، حينما تستطلع هيئتي يتوهج بؤبؤان أخضران في وجه شحب من هذيانه، جالس أنظر إلى ثيابي البالية والدماء التي كستها،

وانهمكتُ في التفكير الذي قطعة حسن حينما قال:
- أتفضل يا أستاذ حسن.
قاومت جلستي وترنحت إلى باب غرفة الطبيب، أنزعج من صوت آنين الباب العالي وهو يُفتح ثم دلفت الغرفة ووقفت أمام الطبيب الذي حدجني في اضطراب ملحوظ، وجحظت مُقلتاه فنهض من الكرسي وتمتم بشفتيه قائلًا:
- مالك يا آدم؟
- حادثة بسيطة يا دكتور هي السبب إني أجيلك دلوقتي.
- حمد لله على السلامة الأول، خير؟!
استلقيتُ متكاسلًا على الأريكة ليُخيم الصمت للحظات في شتاء قارص البرودة، فبالخارج تتساقط قطرات المطر بشدة وتلونت نافذة العيادة بخطوط بيضاء تتخذ شكل الشرايين من حين لآخر جراء البرق وأصوات الرعد التي تجتاح الآذان مُعلنة عن حلول فصل الشتاء.
بالداخل كانت العيادة مكونة من مكتب تتناثر عليه أوراق ودوسيهات عُبث بها، ويزينه منحوتة صغيرة لكلب يتدلى لسانه، وكرسي يدور ثلاثمائة وستين درجة يمثل أمام الشيزلونج، أشعلت سيجارة بقداحتي العتيقة التي ابتعتها مُنذ قرابة خمس سنين، حينما كنت في باريس، وبيد مرتعشة وأصابع تخنق السيجارة استنشقت نفسًا عميقًا من سيجارتي لأتجرع نيكوتينها ببطء وأنفث دُخانها بصمت، كثيرًا ما أضحك بسُخرية على أشكال الشفاه المُلتهبة والرئة السوداء الموضوعة على وجوه العُلب، لَمْ أكن أعرف هل من سذاجتي أم كوني أعرف أنها مُضرة وما زلت مستمر فيها حتى راودني ذهني بأن أبتاع علبة سجائر مارلبورو عند مغادرتي العيادة، أغمضت عيني من كثرة الدخان الخارج من فمي والمتسبب في تهيج أوعيتها الدموية مما تسبب في احمرار مقلتي، لأقطع فترة الصمت قائلًا وأنا أخرج زفير وألقي برأسي للخلف:
- تعبت ومليت!
- حصل إيه؟

- بقالي شهر بتعالج ومفيش فايدة، كُل حاجة بتحصل بحس إني شوفتها قبل كدا أو حلمت بيها مثلًا، معرفش! كل اللي أعرفه إن مواقف معينة وكتيرة بتحصل بفتكر إني عشتها قبل كدا! ومش بفتكرها غير بعد ما تتحقق!
قاطعني الطبيب بوابل من أسئلته:
- بتدمن نوع من أنواع المُكيفات أو الكُحليات؟
- لا على قد السيجارة ومفيش حاجة تانية بشربها.
- شايف إن حد بيراقبك أو أنت ليك عداوة مع حد؟
ارتفع حاجبي قليلًا وعلا منكباي العريضين بمحازاة شحمة أذني وأردفت:
- لا مليش، ولا شايف إن حد مهتم بيه أو زي ما بتقول بيراقبني!
اعتدل الطبيب في جلسته ومن ثم أردف:
- حالتك دي مرت عليا كتير بس أغلبهم كان عايش في الوهم، مُتخيل إن اللي حصل شافوه قبل كدا أو مثلًا حلموا بيه، ممكن علشان اللي حصل دا مش مقبول أو مجاش على مزاجهم، العقل اللا واعي بدأ يبرر الحوادث اللي بتحصل وبدأ يرسل إشارات للعقل الواعي إن في سبب إن الحادثة اللي حصلت دي حصلت قبل كدا أو حلم بيها، وكان في الأخر كل دا مجرد هلوسة.
قاطعته حين اعتدلت في جلستي وأعدت الكلمة مرة أخرى تلقائيًا باندهاش:
- هلوسة!
بحركة رأسية أجاب الطبيب بما يُفيد نعم وأردف بالإنجليزية:
- Hallucination
ثم استطرد ليستكمل بالعربية قائلًا:
إحساس بمحسوس غير موجود، وليها معنيين الأول "الحلم"، والثاني "الذهول"، ليها أنواع كتير سواء "سمعية": إنك ممكن تتخيل أصوات بتسمعها مجهولة المصدر، ومنها "بصرية": وبتكون نادرة وأكتر في اضطرابها بالنسبة للمريض أو "شمية": بتشم روائح غير موجودة فعليًا ومنها "الحسية": بتحس إن حاجة بتلمسك مثلًا، وبتكون بأسباب بتتعلق بقلة النوم، تعاطي مخدر مُعين

بانتظام، حالات اكتئاب متكررة.
استقبلت كلماته حتى أصبحت ككلب ضال مُشرد أعجف برزت عظامه، يقبع في صحراء قاحلة لا ماء فيها، يتشمم رمالها بلا فائد، رمال تقود لرمال إلى ما لا نهاية!، حاولت أن أزدرد ريقي لأكتشف جفافه المُقحل وتهدجت أنفاسي من وقع كلامه حتى قطعت حديثه قائلًا:
- بس دول غيري! أنا بيحصل لي مواقف بحس إني شوفتها أو عشتها قبل كدا، مش بحس بحاجة مش موجودة ومش مدمن ومكنش عندي اكتئاب، الاكتئاب جالي من حالتي دي!
دس الطبيب يده في جيب معطفه وأخرج مفكرة صغيرة وقلم يلضم أوراقها، قطع ورقة وبدأ بتدوين مُلاحظاته بخطوط متشابكة أعرفها جيدًا، ضيقت مُقلتي مُدقق النظر فيها لأقرأ:
« Hypnagogia hallucination»
لمحت ما كُتب بوجه متسائل فأجاب الطبيب قبل أن ألفظ بكلمة:
- ظاهرة انتقالية ما بين النوم واليقظة.
استعاد الطبيب مرة أخرى وضعية يديه المرخيتين وهو يستند على الشيزلونج ليكمل ما لم أفهمه
« hypnopompic hallucination »
ارتسمت بسمة لزجة على وجنتيه حين رمقني وهو يعيد القلم والمفكرة الصغيرة لجيب معطفه قائلًا:
- ودي الحالة الانتقالية ما بين اليقظة والنوم.
- يا دكتور أنت ليه متهمني بالمرض! أنا مش مريض. أنا بقولك إني بحس بالموقف اللي حصل قبل كدا بحس إني عشته قبل كدا، مش بتخيل مواقف وبتخيل ناس!
- اهدى يا آدم متنفعلش.
تجاوبت مع تهدئته لي، واستأذنت قبل أن أخرج من الباب بامتعاض، استوقفت

أول تاكسي إلى المنزل، دخلت الحمام لأصطدم بالمرآة، أمسكت ماكينة الحلاقة الموضوعة وقمت بتهذيب لحيتي ووضعت رأسي تحت الدُش لتنهال المياه على جسدي لينتشر بخار الماء ورائحة الشامبو من حولي، ظللت تحت المياه مُغمض العينين شاردًا فيما قاله الطبيب، كان الحمام مكاني المُفضل للتفكير فكثيرًا ما كُنت أتخذ قراراتي وأنا جالس على المرحاض مُتلذذًا بلفافة تبغي وانغماسي بذهني، ترنحت إلى غرفتي لأستلقي على الفراش، محاولًا النوم بعد أن تناولت قرصًا من دوائي المنوم، لَمْ يكن في بادئ الأمر دواء منوم بل كان قرص ينفذ إلى عقلي ليزيح الأفكارالتي تراودني ليلًا حتى نمت كالميت إكلينيكيًا.

(٢)

استيقظتُ في اليوم التالي مقاومًا نومي العميق، استرقتُ النظر عبر النافذة إلى ظلام حالك فتبينت أن الوقت مساء. ترنحت خارج الغرفة حتى راودني ذهني بالتنزه خارج المنزل، فرجعت إلى غرفتي باتجاه الدولاب وارتديت معطفي الأسود ونزلت إلى وجهتي.

الشاطئ، الثامنة مساءً.

أمقت البحر الذي نزع روحي، أمقت ريحه المالح ورذاذه المؤذي للعيون، كرهته حتى مللت من عروس البحر المتوسط، كرهتُ أيضًا كُتابه وأشعارهم وجحافل مُريديهم. جوفه الغادر ينحدر بخُبث، يُشعرك بفرط لذته في بادئه ثم يُعانقك بدواماته، مليء بالحقد، سفاح ويُتاجر في الأعضاء البشرية، جالس على الكرسي وتسير أمواج البحر نحوي كأنه يُريد أن يتذوق تحلُلي، وسيجارتي التي لَمْ تفارق فمي منذ هذا الحادث الذي جعلني عازف عن منافع الحياة. جالس على بُعد أمتار من بحر حلل بملحه ما يفي بالغرض من البشر، وعلى الجانب الآخر تنبعث أضواء من الكافية - المجاور للشاطئ الذي أمكث فيه - مع بعض الإضاءة الربانية القمرية التي تسمح ببعض الرؤية ليلًا، انطفأت أنوار الكافية فجأة فتكهنت بانقطاع الكهرباء ليقطع شكي الأعمدة المُضاءة على الطريق، لَمْ أكترس وانغمست في خيالاتي ليقطع تفكيري أصوات انتزعتني من صمتي المُستحب لألتفت بما يكفي برأسي لكي أرمق أنوار شموع تنبعث من الكافية وبشر رأيت خيالاتهم في دوائر حول كعكعة تتوسطها بعض الشموع التي تنبعث منها أضواء صفراء، أفقت من أهازيجهم التي يلقونها فاسترقت السمع، كانوا يتلفظون جميعًا في نغم واحد مع طرق لليدين بانتظام، كأنهم يتلون بعض تعاويذ السحر الأسود.

لعنة الله عليهم قطعوا هدوء شرودي!
تسمرت رأسي باتجاه الكافية رغم انقطاع الأصوات إلا أنني رأيت فتاة تعبر باب الخروج من الكافية مُطلة بطولها كزهرة البيلسان وخصلات شعرها الكستنائي تتطاير على كتفيها لتتجلى في أبهى صورة، طالعتها وهي تضع راحت يدها خلال خصلات رأسها لتصلح ما أفسده الهواء، فظللت غير مكترس بما يحدث حتى أكملت خُطاها نحوي.
لَمْ أبالِ بما يحدث حولي، رغم انجذابي للحظات إلا أنني استعدتُ ما كُنت أفكر فيه، غارقًا في خيالي، تاركًا نفسي أبتهل في خلوتي كراهب يسكن دير منذ زمن بعيد، ما سكنت للحظات حتى انتبهت لنظراتها التي تتأثرني بها وخطاها المترنحة باتجاهي بفعل الهواء وكعبها العالي.
كنت كارهًا مَنْ يقطع هدوء راهب مثلي زهد مِنْ منافع الحياة، مشمئز مِن الجنس الذي ينتمي إليه، تظاهرت بعدم الاهتمام وأنا ألمح ببؤبؤي قدومها نحوي، لأستعيد شرودي باتجاه قمر منير يتوسط السماء يغيب لفترات في السماء الملبدة بالغيوم، فظللت شاغلًا عيني بمنظر النجوم الذي أعشقه وتلاطم الأمواج التي أكرهها، ولكن طبيعة الحياة تلعب دورها فلا يوجد ما هو أجمل ولا ما هو أقبح.
أزحت الكرسي!
استلقيت على الرمال كالفراشة، لا آبه باتساخ بنطالي غير مُدرك للأمواج التي بدأت تُلاحقني حتى استشعرت زبدها يدغدغ أنامل رجلي، صوبت مقلتي في السماء لرؤية النجوم، لأستعير مجازًا ريشة الرسام الإيطالي الشهير
ليوناردو دي سير بيرو دا فينشي رسام الموناليزا، محاولًا رسم لوحة فنية في ذهني لهيئة لمياء.
اشتدت برودة الهواء، وعصفت الرياح حتى تناثرت قطرات المطر على وجهي بحنان بالغ فأغلقت عيني لا إراديًا كأنني أمزق اللوحة التي رسمتُها للنجوم، ممتنًا للأيام التي قضيتُها مع قصة حبي الأولى التي لَمْ تكلل بالنجاح، أو ربما

لم يشأ القدر أن يهبني ما أتمنى فتصدى لمُرادي، لأنغمس في خيالي وتحديدًا رحلتي إلى الغردقة مع لمياء.

* * *

الغردقة عام ٢٠١٣.

- تعرف يا آدم؟

-..؟

- أنا بحبك.

تلألأت عيناي كؤلؤتين نفيستين وارتسمت البسمة على وجنتي ثم قلت:

- كُنت عايز أقول لك حاجة.

- قل لي بَحبك.

تقوست شفتاي باسمًا:

- أنا حياتي قبلك كانت متلغبطة.

قاطعتني:

- إزاي!

- كانت حياتي ليها معنى جاد من غير ترتيب، أصحى أروح الشغل أخرج مع صحابي، حياتي كانت عبارة عن ثوابت بتتعاد يوميًا، أما قربت منك وحبيتك لقيت الترتيب اللي نظم لي حياتي، خلا ليها معنى، كُنت فاكر زمان إن الحب هيعطلني، هيعقد حياتي ويخلي فيها كلاكيع أنا مش حملها بس أما لقيتك حسيت بالنعمة اللي ربنا إدهالي.

خيم الصمت لفترة طالت استطلعت صورتي في مقلتيها شاردًا فيها لتستعيد شفتاي الحراك ثم استكملت:

- أنا بحب إدماني لحبك، الإدمان الوحيد اللي مش هعرف أتعالج منه.

تعالت ضحكتها فانفكت أسارير وجهها الحنون، ضحكة أخجلت تماسكي أمامها فأصبحت كطفل يلهس على ألوان من قطع حلوى تُعرض في فاترينا أنيقة، اقتربت منها فاستنشقت عبقها المُريح فأصبح كجرعة من الإدمان الذي

لَمْ أعرف له علاج، استنشقتُ جرعة تكفي مدمن لعدد من السنين اللا نهائية، جرعة تضع المشنقة حول عنقي إذا كُشف أمري، تهدجت أنفاسي، وسرى الدم في جسدي وعمت الفوضى بداخلي، أتذكر أنني لَمْ أجد مكان القلب في أيسري! فلفظت هي بمزحة:

- أنت المصحة هي علاجك يا آدم يا حبيبي، أنا مُستحيل أعيش مع مدمن.

مر الوقت كأنه يسابق الضوء بسرعته في ظلام الكون الفسيح، سلكنا طريق العودة للغرف في الفندق تاركين خفلنا آثار أقدامنا على الرمال، لَمْ ننتبه للظروف المحيطة، الشفق في السماء، وتلون الشمس بلونها الداكن، وهي تغوص في المياه، والأمواج التي بدأت تتهادى على رمال الشاطئ فتزيل آثار أقدامنا، وأسراب الطيور التي تحلق في السماء، وأصوات الرياح كفحيح الأفاعي، وهي تضرب بعنف شعرها فيبعثر خصلاته، ليكتمل القمر ويذهب الغروب شيئًا فشيء.

في صباح اليوم التالي.

انتزعتني أصوات من نوم عميق، استيقظت بلهفة جاهلًا مصدر الضوضاء، جلست أسترق السمع، اتسعت حدقتاي ودار نظري في أرجاء الغرفة كأنني أستكشفها لأول مرة، حتى كاد أن يتوقف قلبي فجأة عن خفقانه وكسا العرق جبيني، ترنحت إلى الدولاب لألتقط قميصًا ارتديته مهرولًا، فتحت مزلاق الباب ودلفت حديقة خضراء تقودني إلى الشاطئ، وأنا أتعثر في خطاي حتى كدتُ أسقط، ومصدر الصوت يقترب أكثر كلما استمر سيري حتى وقعت عيناي على لمياء، ملاك ترك سمائه، تستلقي على الرمال مغمضة العينين بابتسامة وداع ارتسمت على ثغرها، اقتُلع الشيء الوحيد الذي أعشقه فيها، روحها، أصبحت جسد هامد ممدد، اقتُلعت روحه لتطوف إلى ملاذها الأخير في عالم لا رجعة فيه في مشهد لَمْ أكن لأتخيله.

دقائق من الصمت وأنا أضع أذني على قلبها لأستكشف نبضاته حتى أدركت استقامة الخط، انقطعت فجأة الأصوات مِنْ حولي لَمْ أعد أسمع صراخ مَنْ

يتحسر أرفرف بعيني في السماء والدموع تغسل وجهي.

* * *

فتحت عيني وأنا مستلقي على الرمال شاردًا مُغرقًا في التفكير بعدما أدركت أنني كنت أسبح في الماضي فعاودت إغماض عيني ثانيةً قبل أن أفتحهما مرة أخرى على سماع صوت قائلًا:

- لو سمحت.

ارتجف جسدي وسرت قشعريرة لَمْ أعلم مصدرها هل من شدة الصقيع أم ماذا، التفت يمينًا ويسارًا فأدركت أن الكلام موجه إلي، فعلا حاجب عن الآخر بقليل وأردفت بتساؤل:

- أنا؟

- أيوة، هو مفيش مكان اتصالات قريب من هنا؟

تركت الصمت يُطبق على المكان وهي تحدجني بغرابة حتى اعتدلت في جلستي وقلت:

- ما بين تسعين مليون مصري وأربعة مليون اسكندراني ملقتيش غير البائس اللي مرمي على الشط عشان تسأليه عن محل اتصالات!

طُمست معالم وجهها في خجل، وفقدت النطق لثوانٍ، وهي تحدجني بدهشة وكأن الحروف حشرت في حلقها، فحاولت استعادة توازنها أمامي حين أردفت:

- آسفة بس.

تلعثمت:

- بس ملقتش حد موجود أسأله غيرك على العموم شكرًا.

أباحت لرجليها السير قبل أن تنطق آخر حروفها فسلكت الطريق المؤدي للكافية مرة أخرى حتى استعدت شرودي في السماء، لَمْ تمر دقيقة حتى لاحظتها تخرج من الكافية حائرة فقاومت جسدي المغطى بالرمال الممزوجة بماء المطر والبحر وارتفع صوتي:

- يا آنسة.

تسمرت مكانها وباغتتني بردها قائلة:
- ما بين تسعين مليون مصرية وأربعة مليون إسكندرانية ملقتش غيري تنادي عليها!
انطلقت ضحكة ساخرة من وجهي ووضعت يدي في جيب بنطالي لأقتلع هاتفي المبتل والمضاد للماء أيضًا قائلًا:
- الموبايل أهو تقدري تعملي اتصال.
فقدت النطق لثوانٍ ثم لفظت بتردد:
- لا شكرًا.
استكملت سيرها لتخلفني ورائها جالس وأنا أتمعن النظر في تفاصيلها وهي تسلك الطريق المؤدي للخروج من الشاطئ.
هناك على الشاطئ.
صمت يحيه أصوات الرعد وظلام حالك ينيره البرق للحظات، جالس لا أعبأ بما يحدث حولي، يأخذني ذهني لفترات انتهت بجميع حالاتها، كانت رغبتي الملحة بالانفراد بنفسي جعلت ذكرياتي تتوهج أمامي ثم تنطفئ ببطء كسيجارتي التي يحرقها الملل قبل التبغ، ألقيت عقب سيجارتي بعد أن أستنشقت منها نفسًا عميقًا وأشعلت غيرها، أنتبهت لوقفة الفتاة الحائرة متمعن في تفاصيلها الجذابة، فتاة ممشوقة القوام، عينان واسعتان، جزمتُ أنها لَمْ تتعدَ العشرين إلا قليلًا، بطول الأميرات كانت ترتدي فستان يُجسد جسدها من ضيقُه والتصاقه بجسدها بسبب هطول الأمطار كأن المطر يُريد أن يفتنني بمعالمها الحسناء، فظهرت انحناءات جسدها الذي لَمْ أرَ مثله قط، واستدارة مؤخرتها المموجة وثديان مستديران تزيغ لهما العينان من رؤيتهما، وشعر كستنائي يأبى الاستقرار في مكانه من شدة ارتطام الهواء به فيجعل خصلاته تتطاير كشكل حورية انجرفت من البحر واقفة تنتظر شيئًا ما.
أتابع اضطراب وقفتها من مسافة ليست بالقصيرة حتى قاومت جلستي وترنحت كأنني شربتُ خمرًا كفيل ليجعلني سكران مجنون أترنح يمينًا

ويسارًا، دلفت ممر الخروج باتجاهها.
سرتُ ببطء رتيب حتى وقفت بحذاها فلم تستشعر وجودي، اقتلعت سيجارة وأسكنتها فمي فأرهب صوت اشتعال قداحتي وقفتها، فاستنشقت نفسًا بعمق من سيجارتي التي لَمْ أتلذذ بنيكوتينها فقذفتها على الأرض قبل أن ينفذ تبغها ومن ثم قلت:
- كافية مقفول، جو مُمطر، موبايل مفهوش رصيد في مكان خالي من البشر في وقت متأخر ومفيش حتى مواصلة، إيه البؤس دا!.
سكتُ لبُرهة ثم استكملت:
- راحة فين؟ أنا ممكن أوصلك بعربيتي.
التفتت إلي بفزع فتحسست لفظ أنفاسها بصعوبة وهي تزدرد ريقها، وترمقني بنظرات غير مُستقرة حتى تحركت شفتاها ببطء قائلة:
- لا شكرًا.
قاطعتها:
- لو كنت حرامي أو مغتصب أهون من إني أسيبك في مكان الحرامية والمجرمين بيستنوا الوقت دا عشان يشوفوا أكل عيشهم، مقولتليش راحة فين؟
أدارت رأسها في جميع الجهات، ارتعدت من هول المنظر، لَمْ تر إلا ظلام حالك تضيئه بعض أعمدة النور التي تستطلع رعشتها وهي تُنير وتطفئ باستمرار جراء مياه الأمطار، عبءٌ عليها تواجد غريب مثلي في مكان يُهجر ليلًا كأنها بطلة لفيلم رعب أو رواية أجادت في وصف أحداثها حتى أجابت بلهفة:
- محرم بيه.
- تعالي ورايا.
سمعت تردد طرق حذائها ورائي، فتنبئت بما يمكن أن يدور في مخيلتها.
هل تمكث في مكان خالٍ من البشر وكافية أغلق في وقت متأخر؟
أخرجت هاتفي حين ركبت بالمقعد المجاور لي بالسيارة وقلت:
- خدي طمنيهم في البيت عقبال ما توصلي.

- ماشي.

* * *

اتصال يتبعه الآخر والرد: "الرقم الذي طلبته غير متاح حاليًا"، كانت تجتهد ملك لتطمئن على فريدة التي تركتها وحيدة في وقت متأخر من الليل.

* * *

افتتحت كلامي بوجه غير ذي قبل، حاولت أن أرسُم بسمة مُفتعلة لأبدي انطباع آخر غير الصورة الثقيلة التي ظهرتُ بها، جالسة هي تُحاول عدم إظهار قلقها المُبين، لَمْ تبد انطباع قط، تُحاول الاتزان والإقلال من فتح أحاديث تشعرني بقلقها، ويداها تداهمان أساورها الذهبية بقلق حتى أسكنتها بصمت عندما رمقت نظرتي إليها، انصبت عيناها لا إراديًا عليّ عندما فتحت حديثي، وهي تنظر إليّ بوجه مُتسائل ربما من شخصيتي المُتغيرة ووقاري الذي انغمس في الطين من أثر الرمال ومياه الأمطار، أدركت مشكلة أخفيها من عيني المشوبة بالخضرة وبعض خُصلات شعري البيضاء التي ظهرت مبكرًا، استشعرت هذيان روحي ربما. وجهت رأسها للنافذة المُعاكسة بحركة تنم عن عدم اكتراس أو ربما لإخفاء قلقها الذي بدا واضحًا عليها، استشعرت زفيرها بضيق فأطبقت على لساني حتى ساد الصمت لأقطعه بدس مفاتيح السيارة قبل أن أسألها مُحاولًا كسر الصمت المطبق:

- ايه اللي جابك هنا في الوقت دا؟

أنصتت السمع لما تفوهت، ناظرة في زجاج النافذة التي انغمرت بقطرات المطر، تتحاشاني غير مبدية أي اهتمام لسؤالي حتى التفت إلي بعد فترة صمت قائلة:

- كنت في عيد ميلاد صحبتي، حصل خناقة بينها وبين خطيبها ومشيوا وأنا موبايلي فصل والعربية واقفة هناك أهي عطلانة.

- حقير.

نظرت لي باندهاش فوجهت رأسي باتجاهها واستكملت:

- حقير اللي ياخد خطيبته ويسيب الجمال دا!
ابتسمت بسُخرية بعد أن هدأ خفقان قلبها ولَمْ تحرك عينيها المنصبة بشكل رأسي لزجاج السيارة، فجأة التفتت إلي وأردفت:
- وأنت هتقدر الجمال وتوصلني ولا هتطلع من اللي بيطلعوا في الوقت دا يشوفوا أكل عيشهم!
اندفع الدم في وجهي من فرط الضحك ثم أجبت:
- لا متخفيش، بقدر الجمال.
تابعت:
- متعرفناش؟
- فريدة، تلاتة وعشرين سنة، عرفت أنا منين أظن، وشغالة في شركة دعاية وإعلان اسمها مينارد.
بلا مبالاتي المعتادة أستمع إليها حتى تركتُ رجلي تغوص في دواسة الوقود لتزداد السرعة حتى كاد أن ينفجر مؤشر السرعة غير مُهتم بأجواء الطقس المحيطة ولا انعدام الرؤية أمامي من المطر المتساقط على زجاج السيارة ولا من السباب المنهال علي من رش المياه على الأناس المارين على الرصيف بسرعة أعلم أنها ستقودني في يوم لهلاك محتم، لَمْ أفكر بوجود روح تجلس بجواري ليس لها ذنب من شذوذ عقلي وضيق تفكيري في الحياة، أبطأت سرعتي ووقفت أمام فيلا لتلتفت إلي قائلة:
- تمام هو دا البيت، شكرًا يا آدم.
- تمام، العفو.
ودعتها قبل أن أغادر إلى منزلي وأنا مضطرب القيادة حتى صُعقت وتشتتّ ذهني بأنني قد حلمت بهذا الموقف أو قد عايشته مسبقًا لَمْ أقدر على التحديد، عندما وصلت إلى منزلي أسلمتُ نفسي للنوم بعد ساعات من التفكير المُفرط في الأحداث التي تبدو لي ويكأنني عايشتها من قبل أو أنني عايشتُ حياتي مُسبقًا كأني أراها مرة أخرى.

---

(٣)

بالكاد صحوت على أصوات أجراس المنبه التي أمقت صوتها فانتزعتني بقلق من نومي، بعين تُفتح بإعياء شديد حاولت تدقيق نظري لأستطلع الساعة التي كانت تُشير عقاربها للساعة السابعة صباحًا، ضغط على زر الإيقاف لأوقف ذبذباته المزعجة وأسكت ضربات أجراسه التي جرعتني صداعًا حادًا، نهضت من الفراش وترنحت للصالة مستندًاعلى الحائط كسفينة تحيط بها أمواج هائجة، ألقيت التحية على والدتي المنهمكة في كي قميصًا وبنطال طلبت البارحة أن ترسلهم إلى المكوجي فتناست وقامت هي بالمهمة، دلفت الطرقة لأصل للمطبخ وفتحت الثلاجة لأنتزع زُجاجة مياه باردة ملئت لمنتصفها تجرعتها دُفعة واحدة ولَمْ أُبقي منها شيء، استخدمت سخان الشاي الكهربائي الموجود في ركن من الرُخامة لكي أعد كوب شاي يزيح صُداعي المزمن، وترنحت بكوب الشاي في يدي بعُجالة لأضعه على الأريكة حتى لا يلهب يدي المُمسكة بهِ أكثر من ذلك، ودخلت المرحاض لأقضي حاجتي فلم تلب نداء طبيعتي كأنني توهمت، غسلت وجهي وأخذت كوب الشاي وأنا أضع سيجارة في فمي مستنشقًا إياها، فيعقبها احتسائي لكوب الشاي، رجعت إلى غرفتي لأفتح نافذتها فتتسلل الشمس بأشعتها التي كانت على موعد شروقها لتضيف الدفء للغرفة، رأيت السمك هائجًا في حوضه فتذكرت أنه لَمْ يُطعم مُنذ أيام فوضعت له طعام لأشبع رغبته وقمت بتهئية نفسي للذهاب إلى العمل، عم الظلام عندما انقطعت الكهرباء وأنا أدلف باب المنزل لأُرغم على نزول خمس طوابق دون استقلال المصعد الكهربي، ركبت سيارتي بعد أن ألقيت التحية على بواب العمارة وهممت بالذهاب إلى العمل في زحام شديد جعلني أتأخر لدقائق.

عند الانتهاء من يوم عمل شاق لَمْ تكن حالتي المزاجية تساعدني للعودة للمنزل حتى ذهبت بالسيارة إلى الكورنيش
فكُنت وحيدًا أجالس حالي، لَمْ أرد أن يشاركني أحد في أهم شهر بالنسبة لي، نوفمبر، كُنت أشم رائحة الغيث التي ملأت المكان من حولي، أرَ قمرًا صافيًا في سماء تذرف دموعها، كنت أتلذذ بلفافة تبغي في فحيح الرياح، أرافق سور البحر مُستمتعًا برذاذ مياهه على وجهي بلطف بالغ.
استطلعت عُلب سجائري الفارغة بعد أن نفثتُ آخر سيجارتين لأبتاع علبة أخرى من كُشك صغير يمكث على بُعد أمتار، أصبحت شاردًا لفترة أتطلع فيها وجوه البشر من حولي ليقطع شرودي انطفاء السيجارة التي لَمْ أستنشق منها إلا نفسين فقط،، انتابني إرهاق وخمول فدخلت إلى سيارتي لكي أذهب للمنزل، وأثناء طريقي لَمْ أجد بد من عدولي عن الذهاب إلى المنزل فاستطلعت ساعتي لأجد عقاربها تُشير للحادية عشر فغيرت وجهتي إلى الطبيب، عندما وصلت استقللت المصعد الكهربي لأجد العيادة خالية إلا من صاحب الفنون الجميلة، يجلس ويحتسي حسن كوب الشاي وما أن رآني حتى ألقى التحية وأومأ برأسه باتجاه باب الطبيب لأدخل كأن مصيدة أطبقت على لسانه، فتحت المزلاج بعد عدة طرقات على الباب فارتبك الطبيب الذي كان يجمع " لينهار الشكل الذي كان يجاهد من أجله، فوبخني بملاطفة puzzleقطع "
لَمْ ترق لحالتي الآن ثم استطرد قائلًا:
- ها يا آدم إزي حالك دلوقتي؟
- وأنا لو كويس هاجيلك ليه!
- ليه كدا!
- يا دكتور أنا تعبت، بحس إني طالع في الحياة بدورين!! عندك مثلًا حصل إني شوفت واحدة ووصلتها بعربيتي، حسيت إن الموقف دا حلمت بيه أو شوفته قبل كدا.
رمقني الطبيب وهو يدخل قطع البازل في أدراجه ويعيرني اهتمامه، زفرت

في ضيق وأنا أرتكز برأسي للحظات على زجاج المكتب ثم اعتدلت وأردفت:
- مش قادر يا دكتور أنا تعبت، خايف المرض دا يستمر معايا، أنا ممكن أنتحر بسببه.
- تنتحر؟!
التف الطبيب حول مكتبه محدثًا قرع مُنتظم بحذائه الضخم حتى جاورني ووسوس في أذني:
- وليه قلت مرض؟ مقولتش ليه ميزة أو موهبة مثلًا؟
أردف منحنيًا برأسه فلويت شفتي بابتسامة ساخرة وتطلعت إلى وجهه قائلًا:
- الموهبة مش بتإذي صاحبها، المشكلة إني مش بفتكر أحداث الحلم إلا بعد ما يحصل، يعني بصحى من النوم ولا كأني حلمت أو حلمت الأحلام العادية زي كل البشر وأول ما موقف معين يحصل أفتكر إني شوفته قبل كدا أو حلمت بيه، باختصار أنا مش بفتكر الحلم أو الرؤية إلا بعد ما يحصل في الحقيقة.
- يعني هو حلم ولا موقف بتحس إنك عشته قبل كدا.
- ما هي دي المشكلة مش عارف أحدد، بس الأرجح إني شوفته قبل كدا لأني مش بفتكر إني حلمت خالص ولو أفتكرت إني حلمت بيكون حلم عادي زي أي حد ما بيحلم الأحلام العادية ومش بيتحقق.
قلت وأنا ألمح سيجارة مفخخة بالماريجوانا "نبتة الحشيش" فقلت ساخرًا:
- من أمتى يا دكتور!
- من زمان.
- مش تقولي حتى نبقى صحاب كيف واحد.
- مبعرفش أشخص حالة مريض إلا أما أتكيف.
قلت بعدما تلذذت برائحة السيجارة الملفوفة بالحشيش حتى ناولني إياها فأخذتُ نفسًا عميقًا ثم استطردت قائلًا:
- تعرف إن دي أول مرة أشرب حشيش.

استنشقت نفسًا آخر بتلذذ ثم تابعت وأنا أتفحص السيجارة:
- ومش أخر مرة.
قهقه الطبيب:
- الناس كُلها محتاجة البداية، لازم تعيش الموضوع عشان تُحكم عليه.
لَمْ أتمكن من تحديد هل الكون يدور أم أن الطبيب الذي استدار حولي وجلس برفقتي حتى سمعت صوتًا قائلًا بينما كنت مغمض العينين مستمتعًا بسيجارة الحشيش:
- اللي بتحلم بيه أو بتحس إنك شوفته قبل كدا بيحصل بالحرف؟
- يعني مش بالظبط، بس المجمل إن الرؤية أو الحلم بتتنفذ.
جلس الطبيب على الكرسي الماثل أمامي مطيل النظر إلي بتمعن، غير مصدق ادعاءاتي ربما!، حدجني وأردف بالفصحى كأنه يلقي مُحاضرة لعلم النفس:
- يكن وكأنه يتحدث إلى شخص ذهنيًا ويخاطب ويحاور نفسه، يرمي بنفسه في مستنقع من الأوهام، يجالس ويحدث نفسه ويظن أنه يفعل ذلك مع أشخاص تمثل أمامه، وحين يصحو ويحدث موقف معين يوهم عقله أنه حلم أو رأى هذا الموقف.
قاطعته:
- ودا طبقًا لكلام العلم ولا طبقًا للكيف!
ضحك ضحكة جعلت بطنه المُكتنز يتمايل فأكملت:
- بس أنا مش مريض.
- المريض يا آدم مش بيكون حاسس بنفسه.
عبرت عن امتعاضي بعدما ألقاني بضربته القاضية كملاكم جسور، جعلني أترنح بخيالاتي حتى كززت على أسناني بشدة، استعاد وضعيته الهادئة عندما لاحظ أنني أدقق النظر بغضب إليه، أخرج قلم مُعلق بجيب قميصه وهو يسحب ورقة من كومة الأوراق المتراصة فوق بعضها على المكتب وبدأ بالكتابة منكس الرأس وهو يردف:

- "عايزك تاخد إجازة أسبوع من الشغل، والبرشامة دي هتاخدها قبل ما تنام، وكل ما حاجة تحصل تجيلي فورًا تحكيلي.
غادرت العيادة وأخذت الروشتة لأبتاع الدواء المدون بها رغم عدم اقتناعي بالمرض، هممت بالعودة إلى المنزل، وعندما دلفت باب الشقة رأيتُ قطع من الجبن على الطاولة فغمستها في شطيرة وأغلقت التلفاز الذي تُرك ليُحدث نفسه. دخلت غرفتي حتى أستلقي على الفراش عسى أن أغفو.
"الحتمية" كلمة لها شقين معنى لغوي وتعني:
- وجوب ما لا مفر منه.
ومعنى فلسفي طبع في ذهني مُنذ أن درسته في الجامعة يعني:
- إنّ لِكُل ظاهرة سببًا وإنّ بين الأسباب والظَّواهِر قوانين ثابتة.
تأرقت من البحث عن ظاهرة تعطي سببًا لما أنا فيه، فلم أجد أي أسباب.
في بكرة الصباح.
لَمْ يزرني النوم مُنذ البارحة، أجراس المنبه لَمْ تَكُن لها دور، فسهري جعل مُهمتها بلا فائدة، فقط جرعت عقلي مزيد من الصُداع.
بدون أن أستطلع الساعة عرفت من ضبط منبهي البارحة على السابعة صباحًا، قاومت جسدي المستلقي على الفراش حتى اصطدم وجهي بالمرآة، رأيت هالات سوداء حول عيني المخدرة وعبوس وجهي من السهر وأسناني المصفرة جراء شراهة التدخين، أصبحت أشرب بلا كأس ولا خمر فأُصبح كالسكارى ذهني مغيب، أترنح وأنا أستند على الحوائط وعيناي شبه مغمضتين، أتحسس كالكفيف بيدي الممدودة وأسترق السمع لقطرات المياه تتساقط من صنبور لَمْ يغلق جيدًا، تحسست بأناملي وقع قطراته على يدي حتى فتحت الصنبور ونزلت برأسي تحت تدفق مياهه لأفيق من سكرتي، جففت وجهي وشذبت لحيتي الشعثة وتسللت إلى غرفتي لأفتح الدولاب وأرتدي ثيابي ونظارتي السوداء لتواري هالاتي السوداء، لأفر إلى الشركة، ظللت متخفيًا وراء نظارتي عندما قدمت للشركة فاتجهت صوب باب المديرة بلا عائق من أحد الزملاء،

وقع قرع الباب على أذنها من أول دقة فأذنت لي بالدخول، أومأت لي برأسها بما يُفيد الجلوس فجلست منتظر أن تنهي مكالمتها السمجة، لا تعيرني أدنى انتباه، جالس وأنا أحاول أن لا تُفلت أعصابي، مررت سيجارة بفمي لأواري امتعاضي خلف دُخانها، أنفض حرق تبغها الهش في المنفضة، تستكمل هي مكالمة أربكت وقارها وتدلى العرق على جبينها فأوضح فارق البشرة قبل وبعد مساحيق التجميل، طالت ربع ساعة أصبحت فيهم عقارب الساعة كالسلحفاة حتى أنهت مكالمتها بعد أن ملأت الغُرفة بدُخان سجائري الذي أرغمها على السُعال، ليعتريني شعور بالخجل فدسستُ اللفافة في المنفضة لَمْ ينفد تبغها بعد لتفتتح الحديث قائلة وهي تضع يدها على فمها وأنفها:

- مش قالوا لك إن السجاير مُضرة بالصحة؟

أجبت بتهكُم:

- كُل اللي قالوا لي كدا ماتوا قبلي.

لم تكترس بما تفوه لساني، ترمقني بعين حائرة متسائلة عن سر الزيارة المفاجأة، منتظرة أن أبوح بما قد جئت من أجله، التقطت منديل لتجفف العرق المتدلي من جبينها، نظرت لي من وراء نظارتها وقالت:

- إيه سر الزيارة المفاجأة دي؟

- كنت عايز إجازة.

- عرضتها عليك قبل كدا ورفضت! إيه سر التغير!

- كنت بتحامل على نفسي، بس فعلًا أنا محتاج أسبوع إجازة، عشان أرتب أموري، ويمكن تكون أخر إجازة ليا.

كُنت أنطق الكلمات بثقل ونفور جراء كثرة أسئلتها:

- ليه هتحضر بانتظام ومش هتتأخر ولا هيجي شكوى بتغيبك؟

التفتت عيناي لدقات الباب الذي دخل منه الساعي بصينية حمل عليها فنجان قهوة ثم أدرت رأسي بتجاهها قائلًا:

- لأ، هفكر أسيب الشغل.

رمقت لا مبالاتي بإشفاق فما لبثت أن نظرت إلى ورقة دونت عليها شيء وقالت:
- اللي تشوفه يا آدم، روح شؤون العاملين وأديهم الورقة دي، وربنا يوفقك.
- شكرًا.
غادرت المكتب بعد أن استأذنت بإماءة رأسي وأخذت الورقة، سحبتني ساقي وصعدت السلم للطابق العلوي ومررت في ممر عرضه مترين، على يميني غرف قفلت أبوابها، أسير وعيناي تقرآن ما دون على أبواب الغُرف حتى وقفت أمام عيني لافتة كُتب عليها "شؤون العاملين"، قرعت الباب فسلط العامل من أسفل نظارته طرف عينيه، ثم عاد منهمكًا في قراءة بعض الأوراق، ألقيت عليه التحية ووضعت الورقة على مكتبه، وطلبت منه إجازة، التقط الورقة وحدق بها ثم سحب درج المكتب المغلق بقفل مُحكم وأخرج منه ورقة بيضاء مطبوعة مُسبقًا لهذا الغرض خصيصًا فاطلعت عليها لأقرأ ما دون فيها.
نموذج طلب إجازة
الاسم / آدم يوسف عبد القادر
مدير الشركة / هالة محفوظ يوسف
تنص المادة رقم (٤٩) من القانون رقم ١٨ لسنة ٢٠١٥م قانون الخدمة المدنية في البند رقم (٣) على أن "تكون حالات الترخيص بإجازة خاصة بأجر كامل على الوجه الآتي:
استحقاق الموظف إجازة بسبب مرضه وقد تبين بعد الاستشارة الطبية بثبوت صحة ذلك فنرجو من سيادتكم التكرم بالموافقة على منحي إجازة لمدة أسبوع والتفضل بالتنبيه باتخاذ اللازم تفضلوا بقبول فائق الاحترام
المرفقات: صورة التقرير الطبي الصادر من المستشفى".
سخرتُ من جملة لَمْ أعرف لها محل من الإعراب "المرفقات: صورة التقرير

الطبي الصادر من المستشفى". فأنا لَمْ أقدم مرفقًا أو أي شيء مشابه، وضعت توقيعي على الورقة وأمسكت طرفها لتتدلى وأنا أمر من باب المكتب وعندما نزلت للطابق السفلي اصطدمت بمُراد لينهال علي بتساؤلاته الفضولية، فلم أجبه بأكثر من إجازة اتخذتها لراحة نفسية أتوق إليها، ودعته قبل أن أغادر الشركة لأعود للمنزل.

زفرت بضيق بعد ملل رتيب انتابني بيوم إجازتي الأول. اعتدت الفراش يومًا، زرت صديقًا في الثاني، أصبحت حياتي روتينية، يومي عبارة عن ثلاث وجبات من الطعام بفواصل قراءة كتاب من مكتبتي، جلست إلى "اللاب توب" وفتحت الشبكة العنكبوتية لأغوص في عالم افتراضي يسمى مواقع التواصل الاجتماعي بأنواعها، مللت كُل شيء!. حاولت تغيير أشيائي المعتادة، أفلامي الأجنبية الغامضة استبدلتها بالساخرة، لَمْ أعد أدندن الأغاني المفضلة لدي، نوع سجائري تغير، كل شيء مباح للتغير إلا هواجسي الداخلية.

أدركتُ قيمة عملي ومدى شغفي بهِ، لَمْ يبق من حساب أيام الإجازة إلا القليل، جلست على الكرسي المُتحرك وتركت عمودي الفقري يسترخي للوراء بعنقي الذي أحدث بعض الطقطقات حتى اعتدلت على رنين هاتفي لأرى اسم "الطبيب" فضغط على زر الإجابة على الفور.

- إيه الأخبار؟

- الحمد لله.

- مفيش جديد!

صمت طال:

- لأ.

- مفيش أي حاجة غريبة حصلت؟

ساد الصمت مرة أُخرى للحظات، بدا لي أنه يعاملني على أنني مريض رغم أنني أسلمت له نفسي وأعلمته أنني مُجرد شخص يُفضفض له ولَمْ أريد معاملتي كمريض يحلل طبيب حالته ويكتب ملاحظاته وأدويته لي، علا صوتي

بنبرات هُجومية حادة لأقطع الصمت قائلًا:
- حاجة غريبة زي إيه؟
- حلمت مثلًا!
- حتى لو كان اللي أنا فيه حلم وبيتحقق، فأنا مش بفتكر الحلم!
- تمام خليك متابع نفسك.
- تمام.
- وانزل الشغل عادي.
قاطعته:
- كدا كدا الأجازة في نهايتها.
أنهيت مكالمته وأسلمت نفسي للفراش، فردت ظهري ثاقب النظر للسماء التي سقطت منها الأمطار على زجاج النافذة التي ملئت بالمياه، رمقت علبة سجائري على الطاولة المجاورة لفراشي فـأخذت سيجارة وبدأتُ في استنشاقها بنهم، كثيرًا ما كان يحلو لي أن أدخن بـيـن نسمات المطر كأن السيجارة تحلو في الشتاء خـاصة، تلفت اللفافة عند منتصفها بعدما تثائبت ونزلت تحت الغطاء الوثير لأغط في النوم.

(٤)

نهار يتلألأ قرص الشمس المشع فيه، من النادر أن أخرج خارج حدود غرفتي. في الصباح استيقظتُ على موسيقى سيمفونية موتسارت الشهيرة التي أخذها الرحبانية لتغنيها فيروز فدندنت بكلمات الأغنية وأنا مستمع للموسيقى.

يا أنا يا أنا أنا وياك صرنا القصص الغريبة.
يا أنا يا أنا أنا وياك وانسرقت مكاتيبي.
وعرفوا إنك حبيبي.
وعرفوا إنك حبيبي.

اتجهت صوب كرسي الأعرج الذي يتحرك بانتظام، منعزل في غرفتي، لا تُعير أذناي انتباه لما يحدث بالخارج، انتقيت كتابًا شدني عنوانه فرحتُ أمرر عيني على كلماته حتى غلبني النعاس فاتكأت على الكرسي لأستلقي على الفراش وأغط في نومٍ عميق.
قرأتُ مسبقًا عن أضرار القهوة على الريق فعرفت طبع عنادي أو ربما عدم مجاهدة نفسي، كأن الكافيين يسري في دمي كالمدمنين، إدمان لَمْ أجد له بديل، فما أن استيقظت حتى أعددتُ فنجان قهوة أصبح عادة لا مفر منها في الصباح لأشبع رغبتي من الكافيين، كنت أرتشفه ببطء حتى الرمق الأخير، أحب أواخر الفنجان، كنت أستشعر مرارة التفل الموجود فيه فكان جديرًا أن يحطم أي صداع من رأسي، دخلت والدتي بطاولة ملئت بالطعام، وما أن رأت فنجان القهوة في يدي حتى زجرتني بعدم الشراب قبل تناولي للفطور، بعد أن غادرت، اطلعت على المكتبة لانتقاء كتاب -غمر وجهي بأتربته التي سكنت جوفه - لأنكفء عليه لساعات، مكتبة أتمت عامها السابع في غرفتي بعد أن ورثتها عن والدي الذي أتم عامه السابع عند الله.

توجهت إلى ذكريات انقضت سنوات عليها كثر عددها، ما زلت أتذكر وجه أبي، ذاك الوجه الذي تقلصت ملامحه لتُظهر شيخوخته المبكرة، أتذكر زمجرته وحنانه وقسوته في آن واحد، شعره الأسود المجعد الذي تخضبت منه خُصلات بالبياض تزيد من رونقه ووقاره، أتذكر طفولتي وزجر والدي الذي يعقبه حنان يفيض بهِ علي، تذكرت آلامًا حتى أفلتت بعض الدموع من عيني، تعب والدي في آخر أيامه من جراء الجراحات المتعددة، كانت لحظة فارقة في حياتي فكنت صغير ولَمْ أستطيع تحمل مسؤولية كهذه، استيقظت في صباح غابت الشمس فيه وتلبدت سماؤه على عويل والدتي، قدرت أنني لن يتسنى لي فرصة أخرى لرؤيته.

كانت تقص والدتي علي أن بعد عشر سنوات عجاف لَمْ تضع فيهم مولود جئت ليحملني والدي ويطلق علي آدم نسبة إلى أول البشر آدم- عليه السلام - تشبيهًا بأنني أول وآخر مولود تضعه والدتي، وعند كبري أرغمتني الظروف المحيطة بالالتحاق بكلية التجارة بدلًا من الهندسة كما كان يتمنى والدي.

فركتُ بيدي وجهي لأزيح الدموع وأنا أستعيذ بالله، ظللت شاردًا للحظات حتى تمتمت شفتاي اسم "فريدة"!

احمرت وجنتاي وراودني ذهني للحظات باسمها حتى أتتني رغبة ملحة في افتعال شيء لمقابلتها ولكن لَمْ أعط لنفسي فرصة لطلب رقم هاتفها، كل ما أعرفه هو عنوان منزلها.

انتبهت فجأة حين تذكرت أن رقم والدها مسجل بهاتفي فلامست شاشة هاتفي لأبحث عنه.

وجدت الرقم وقمت بالاتصال حتى انتهى الرنين بدون إجابة! عاودت الاتصال مرة أخرى فلم يحدُث أي تغير، يئست فقذفت هاتفي على الأريكة، وعانقت يداي فنجان قهوتي، وأنا جالس على الكرسي الأعرج كما أحببت أن أُطلق عليه، أغمضت عيني تاركًا رأسي ترتخي للوراء ليقطع رنين هاتفي إغماض عيني، هرعت مُطضربًا ووقع فنجان القهوة على ملابسي فآذتني سخونته إلا أنني

لَمْ أعبأ إلا للحظات وقمتُ مُلتقطًا هاتفي، وأنا أعلم أنه والد فريدة أعاد الاتصال ليستفسر عن الرقم، فأجبته على الفور.

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام ورحمة الله، مين معايا؟

- آدم يوسف شغال مع الآنسة فريدة في شركة مينارد، وكانت عايز..

قاطعني:

- أنا والدها ودا رقمي.

- طيب هي موجودة؟

- لا خرجت من ساعتين.

- طيب ممكن رقمها؟

دونت رقمها بعد أن أملاه عليّ، ظل الصمت يقبع داخلي، أحاول أن أخلق سببًا للاتصال، لامست شاشة الهاتف واتصلت دون سبب مقنع، لَمْ تهملني دقائق واستجابت من الرنين الأول، فقفزت مِن فراشي إلى البلكونة مرتبك الحال متهدج الصوت قائلًا:

- إزيك؟

- مين معايا؟

طبقت المصيدة على فمي لفترة ثم قُلت:

- أنا آدم.

- آدم مين؟

أطبق الصمت وشل لساني، ثم قُلت مازحًا:

- موبايلك مش فاصل شحن!

علت ضحكة حجبتها عن ميكروفون الهاتف استرقت سمعها وهي تستكمل بتنهيدة من أثر ضحكتها:

- آدم، إزيك أنا تمام الحمد لله، أخبارك إيه؟

- بخير الحمد لله.

- بس ثانية جبت رقمي منين؟
- إنتي نسيتي إن رقم والدك متسجل عندي؟ اتصلت وقلت له أنا شغال معاكي في الشركة وعايز رقمك.
- وبابا مكدبش الخبر، المهم كانت عايز حاجة؟
- أها أصل.
أزحت الهاتف عن شمحة أذني، وخلقت سبب يقنعها باتصالي:
- أصل عايز فكرة لإعلان، ومحتاج مساعدتك، فلو ممكن نتقابل في مكان النهارده؟
نشر الهواء نسماته على جبيني فجففت قطرات العرق بعدما أُلهمت الرد.
- تمام مفيش مشكلة، أنا حاليًا عند صحبتي ونازلة حالًا،
أقابلك فين؟
- نفس المكان، الكافية اللي جمب الشاطئ؟
أتمت مازحه:
- مش هلاقى اللي يوصلنى.
- موجود.
أغلقت الهاتف وتركت جسدي يستلقي على الفراش، أتأمل رقم تلو الآخر من أرقامها، بدا لي التغير واضحًا عليّ.
مَنْ أنا؟
مَنْ أكون؟
لَمْ أعرف إلا أنني أصبحت كطفل صغير هائج الخطى، أشعلت سيجارة لَمْ أستنشق منها إلا نفسًا واحدًا وأتلفت ما بقي منها في المنفضة، واتجهت إلى دولابي مبعثِرًا أروقته حتى حصلت على مرادي من الثياب، التقطت عيناي قميصًا أسود منقوط بياضًا فأخذته مع بنطال ومن تحت الفراش جلبت حذاء نفضت أتربته وقمت بتلميعه، واقفٌ أمام المرآة أستطلع هيئتي، حتى نثرت نصف قارورة عطر على ثيابي، فاحت رائحته فتوهج قلبي عندما استنشقت

نسماته وأخذت في تصفيف شعري وأنا أستعرض هيئتي أمام المرآة، اعتصرني تفكيري وشدة اهتمامي بها.
خلفت تلك الأفكارالتي تراود عقلي وأنا أستقل المصعد، ركبت سيارتي ليظهر أمامي سايس طويل مُغبر الشعر عندما تنظر إليه تحسب من أول وهلة أنه صُعق بالكهرباء، افتعل مسحة للسيارة، وضعت في يده ورقة فئة عشرين جنيهًا كانت من نصيبه جعلت بسمة ترتسم على وجهه أزاحت الأتربة عن وجهه، حين وصلت للكافية المجاور للشاطئ رحت أتفحص المكان من داخل سيارتي، نزلت من السيارة وأنا أتمعن في ثيابي حتى دلفت باب الكافية، تحركت عيناي يمينًا ويسارًا ولَمْ تستقرا في مكانهما مستكشفتان ركنًا هادئًا أمكث فيه، فوقع نظري على طاولة يعلوها نافذة مطلة على البحر.
جاءني نادل بقائمة أسعار وسحب كرسي فقلت قبل أن أتفحص قائمة الأسعار:
- واحد قهوة مظبوط لو سمحت.
أنتظرها، أستطلع ساعتي من حين لآخر، أمسكت هاتفي لألعب لعبة تزيح توتري الذي بدا واضحًا علي، انتابني الملل فبحثت عن رقمها قبل أن أغلق الهاتف وأضعه على الطاولة، ترددت مرة أخرى والتقطت الهاتف وبحثت عن الرقم ثانيةً وفي هذه المرة ضغط على زر الاتصال، حين وضعت الهاتف على أذني وأنا أرفع رأسي لمحت قدومها من بعيد تتمايل بكعبها العالي محدثة بعض الطقطقات الموسيقية، لفظت أنفاسي بصعوبة وخفق قلبي من شفتيها الرقيقتين وشعرها المسترسل على كتفيها كأنه يعانق جسدها، تضع مكياج رقيق لا يكاد أن يُرى وكحل كسا عينيها الواسعتين، زهرة زاهية في ربيعها الأول تتمايل إلي.
شعرت كأنني مُهرطق تاب عن خطيئته وندم عن فعلته ورجع إلى ربه بعدما رأى بديع خلقه، كادت أن تُذهب عقلي من روعتها كأنها جرعتني ما يكفي من النبيذ العتيق لأفقد الوعي وأذهب إلى سكراتي، أجمل من زي قبل، أرق، أفضل، أحسن، أحتاج إلى كل اللغات الأعجمية بجانب اللغة العربية لكي

أصف ما رأت عيناي.
وقفت أمامي فابتلعت ريقي وجففت عرقي المتدلي من جبيني حينما قالت:
- معلش اتأخرت عليك.
أنزلت الهاتف من على أذني مُسلط النظر إليها بصمت، أتابع وقع خطواتها بتمعن وهي تضع حقيبتها على الطاولة وتجلس على الكرسي المقابل، أخذت نفسًا عميقًا ثم زفرته بقوة فرحت أشتم عبق رائحة زفيرها، ارتبكت حين انتبهت أن فترة الصمت طالت فقلت مُتلعثمًا:
- لا ولا يهمك، أنا مش بقالى كتير، تيجي نتمشى على الشاطئ مع إني مش بحبه بس عشان نعرف نتكلم في هدوء عن الشغل؟
- معنديش مانع، يلا.
تقدمت وأنا أفتح باب الكافية، تتمايل بخفة وهي تنزل أربع درجات من السلم، كادت أن تقع نتيجة اختلال توازنها فامتدت يدي وتوازنت، تخطينا الممر المؤدي للشاطئ بصمت، اعتصرت عقلي لكي أبوح بأي جملة فلم تجتمع الكلمات وحُشرت الحروف في حلقي، لَمْ أجد ما أقول، هل ستظل منتظر أن تتفوه هي! ألن تتحرك تلك الشفاه الصامتة!
أحسست ببطء خطانا بفعل الرمال حتى فتحت هي الحديث قائلة:
- قبل ما نتكلم عن الشغل، إشمعنى مش بتحب البحر ورغم كدا تقريبًا مش بتفارق البحر!
- البحر يتحب من بعيد.
-؟.
نظرت إليها ثم استطردت:
- القصة طويلة ليكي روح تسمعي؟
ارتفع كتفيها وهي تومئ برأسها حين أردفت:
- لو معندكش مانع.
بدأت في سرد الحكاية بابتسامة افتعلتها، ذرفت مقلتاي أمطارهما، نظرت

للسماء فرأيتها ملبدة بالغيوم ثوانٍ وتحسست قطرات المياه تتساقط على وجهي، الوقت يمضي، تتابع بابتسامة تغزو ثغرها من غزلي في لمياء مدركة الجزء البركاني الذي سوف ينفجر في وجهها عن كرهي للبحر كأنها تتوقع نهاية فيلم سخيف هجره جمهوره قبل أن ينتهي، تستمع، فتتأثر، استشعرتُ خفقان قلبها حتى أفلتت دموع اختلطت بكحلها الأسود الأنيق، الجو يمطر تدريجيًا مع سردي للحكاية، يشتد المطر كلما واصلت، عند النهاية ضرب البرق بنوره قلب السماء، وأصوات الرعد تصدر مع لمعان البرق، صقيع الهواء احتوانا فتسلل من بين ثيابنا لتقشعر أبداننا، أسمع أصوات أسنانها تصطك محدثة طقطقات مرتعشة، لَمْ يلحظ كلانا ملابسنا التي ملأتها مياه المطر، بل أمطار دموعنا التي استرسلت على وجناتنا كوديان تنهمر بمياها، أكملت النهاية فودعنا الـمطر لـيظهر القمر مكتمل منيرًا للشاطئ.

أغمضت عيني لثوانٍ معدودة لأعاود فتحهما بإعياء شاردًا للسماء، صوبت رأسي باتجاهها وَوَسوست بصوت خافت:

- الوقت أتأخر ومش أتكلمنا في الشغل على ما أظن، يلا أوصلك ونشوف يوم تاني أكلمك عليه.

لَمْ يعد الكافية على امتداد البصر، اختفت أنواره المنبعثة وطريقه المشبع بأضواء السيارات، أظن أننا سرنا كثيرًا،

صمت مطبق على المكان تتخلله أصوات مياه البحر بتلاطم أمواجه الثائرة وعزيف الرياح بصفيرها يطوف في الأرجاء ويخترق آذاننا، اقتطع الصمت تنهيدة تهدج لها جدار قلبي واشدت في خفقانه حين أجابت بصوت متقطع:

- ماشي.

أخذت آثار أقدامنا على رمال الشاطئ طريق عودتنا، ظل الصمت لوقت طويل فلم ننبث بكلمة واحدة، تراءت انبعاثات أضواء الكافية فعرضنا عنها، دلفنا ممر الخروج من الشاطئ، واتجهنا نحو السيارة حتى ركبنا، جلست وأنا أضع أنامل يدي في جيبي لألتقت المفاتيح وأدسها في السيارة لأقطع الصمت

قائلًا:
- هشوفك أمتى تاني عشان الشغل؟
أدرات رأسها باتجاهي وأردفت:
- رقمي معاك، ورقمك سجلته.
- عندك أكونت على الفيس بوك؟
- «اها. Farida Elmanyawy »
خيم الصمت للحظات لَمْ يُكسر إلا عندما وضعت أنامل رجلي على دواسة الوقود فانطلقت لبيتها وودعتها، وأثناء طريقي شح البنزين من سيارتي فعدلت إلى محطة وقود مصر للبترول لأشبع رغبتها الملحة ورغبتي لقهوة ترسل كافيينها لجسدي ونيكوتين أحرقت سيجارة لأمتصه بسخرية عندما قرأت لافتة كتب عليها بخط غليظ باللغتين.
No smoking in this region
ممنوع التدخين في هذه المنطقة
ركبت سيارتي وغادرت محطة الوقود إلى المنزل، عندما فتحت باب الشقة كانت أمي تغط في نوم عميق قبل أن تترك لي طعام لَمْ أقربه ودلفت باب غرفتي والتقطت اللاب توب، ضغط على رز التشغيل، مُلئتُ بخيبة أملي عندما قُطعت الكهرباء، توجهت لهاتفي وأنا ألامس شاشته حتى سحبت عددًا من الجنيهات رصيدًا لأبلغ مرادي من الشبكة العنكبوتية وقمت بإدخال حسابي على «الفيس بوك» في عالم افتراضي يداري الجميع وجوههم خلف شاشات ويمحورون مشاعرهم خلف بعض الحروف في خاصية تدعى « POST » بشر انكب الحزن وآخرون الفرح منهم من يخصص منشوراته للسياسة ومنهم للرياضة أو الفن وآخرون لم يعطوا لهذه الخاصية اهتمامًا يُذكر مثلي، كمستخدم «للفيس بوك» كموقع للتواصل وبخاصية أخرى استعنت لكي أبحث عن فريدة فضغط زر «Search »
وأنا أضع حروف اسمها بأناملي

"Farida Elmanyawy"
لأستكشف عالمها الافتراضي بين جدران هذه الشبكة حتى ضغط على خاصية "add friendأخرى "
لم تدر عقارب الساعة لدقيقة حتى تلقيت إشعار بقبول صداقتها فبادرت بإرسال رسالة.
- روحتي.
- اها.
ودار الحديث الإلكتروني على النحو التالي.
- صحيح؟
-..؟
- جبت رقمي منين!
- إيه الزهايمر دا؟ أنا مش قلت لك كلمت بابا وقلت له إني شغال معاكى في الشركة وعايز رقمك.
- طيب وجبت رقم بابا منين!
- هههههههههه. انتى الزهايمر عندك وصل لأعلى درجاته، امال مين اللي كلمت باباها اما كنا على الشاطئ!
- هههههههههههه، نسيت صحيح.
- شكل ذاكرتك ضعيفة ومش هتنفعي في الشغل اللي عايزك فيه.
- صحيح إيه نوع الشغل؟
- أما أقابلك هقولك عليه.
- تمام.
ظللت منكس الرأس للهاتف أو ربما لاب توب مُستخدم خاصية التواصل فقط مع فريدة، لَمْ أتخيل يومًا أنني سأستشعر الإعجاب مرة أخرى، كنت أجهل حقيقة أن القلب لهُ مخزون من الشعور إذا تم تخزينه استعد أن ينفجر في وجه أحدهم، رن القلب أجراسه فاستجبت، استجبت لشعور الدفء

والمجازفة إلى شخص فقد الإحساس بقلبه الذي لَمْ يعد ينبض حتى انفجر كبركان ثائر قذف حممه البركانية.
تهيكل غشاء قلبي الرخو ودارت دمائه وعاد النبض إليه من جديد كأنه يحيا بعد موت، خلعت ثوب التبلد عن عاتقي، أظهراهتمامي الواضح بفريدة كم معاناتي في السنين السابقة، عقارب الساعة أُرهقت من دورانها وأنا منصب بالساعات أتحدث إليها.
لَمْ أكن أعلم ماذا يحدث!
حلم!
خيال ربما!
حقيقة خفق لها قلبي!
عبوس وجهي تبدل وازدهرت ملامحه، أشرقت شمسي، عيناي توهجتا، وسار الدم في جسدي، دمّ تبدل عن سابق عهده، ذاكرتي لَمْ تعد تتذكر ماضيًا تجمد في صورة لَمْ أجلبها من المصور.
رغم عدم إيماني بالحب الثاني عند البشر إلا أني كفرت بإيماني كما كفروا جميعًا إذا وجدوا البديل المناسب "كمن لا ثبات لمن لا إيمان له".
غادر نهار لَمْ أذكره، انطوى ليل لم أستشعر برودته، اشتكت عقارب الساعة فلم أسمع أنينها.
انتبهت عيناي عندما لمحت جزء خصص لأعياد الميلاد في الـ"فيس بوك" كان في الخامس عشر من شهر نوفمبر قد ولدت فريدة، لَمْ أقدم على تهنئتها برسالة إليكترونية تحمل بعض الحروف التي لا أعترف بها بل عزمت إعداد احتفالًا في مكان لقائنا الأول، ظللت أتفكر في هذا الشأن حتى غلبني النوم وأنا جالس على اللاب توب.

(٥)

كانت الساعة الحادية عشر عندما استيقظت في صباح يوم آخر بعدما أصبحت الشمس مُشرقة، تحسست بأناملي لأضغط على زر الإضاءة فلم يستجب، جلستُ شاعرًا بالملل وأصابني النفور من الصخب الذي يأتي من أولاد جيراني، كأن المنزل أصبح بركة ماء ضحلة راكدة تقذف بالصخور فتُعكر ركودها، لم أتحمل البقاء ساعة تقريبًا، ارتشفت فيها كوب شاي واستنشقت آخر نفس من سيجارتي ثم ارتديت ثيابي واستكملت يومي خارج البيت.

بعد أحداث يومي، جن جنون عقلي وشح التفكير من ذهني، أيعقل أن أكون قرينًا لأحد الشياطين الذين يعبثون بمصيري أم أن الطبيب محق فيما قال!

انطبقت طبقة من الجهل على غشاء ذهني، لَمْ يعد عقلي يُتيح لي التفكير، أزاح الصداع المزمن خيوط عقلي من مكانها، ولَمْ أعد أتحمل أقراص الدواء المتراصة على المكتب بأنواعها المضادة للصداع حتى ألقيتها جميعها من النافذة دُفعة واحدة، استشعرت روحي تقتلع من جسدي، رحت أطوف أرجاء الغرفة يمينًا ويسارًا كثور هائج يستثار بقطعة قماش تزينت باللون الأحمر يهجم عليها بامتعاض.

بعد تتابع أحداث يومي وانقضاءه اندهشت، فترتيب الأحداث جعلني أتذكر أني شاهدت هذا الحدث كأنه حدث من قبل أو حلمت به في المنام.

اعتصر التفكير عقلي، لم أقدر على التحديد.

أحلمت بهذا الحدث مسبقًا وتحقق؟

أم أنني عشت زماني قبل أن آتي إلى هذه الحياة؟

أم أنني مهلوس؟

الجهل يصب بوادره علي.

قصصتُ ما يحدث لي لوالدتي، حتى أصبحت كالذبابة تنسى كل بضع ثوانٍ، فتحوم حولي لتوسوس في أذني، حتى أرغمتني على السفر إلى القاهرة ليومين، ذهبت فيهم لشيوخ قرأوا علي بلا فائدة وأرغمني أحدهم على مياه مقروء عليها القرآن فشربت، بلا فائدة!

لَمْ أسلم من نصب الدجالين المخادعين فاستسلمت لهم وهممت إليهم وعرفت أماكنهم المشؤومة التي لَمْ تجرعني أي خوف، أعبر بين جدران باهتة، وديكوراتهم المصطنعة التي كشفت عنها الأفلام، ممر مقوس لخمسة أمتار كُنت أبطئ في خطواتي وأنا أعبره ليس إلا لأستكشفه، ممر يُضاء بأنوار النيران المثبتة بحوائطه لترسم خيلاتنا بمحاذاتنا، عبر بؤبؤ عيني الذي رسم خارطة للمكان في ذهني حتى التقط رأس جاموس أو ثور معلق بقرنيه البارزين حتى دلفت الممر إلى حجرة تتوسطها فوهة بجمرات نيران ينبعث منها دخان يتحكم معتوه يجلس أمامها بهِ، يزيد من دخانها ببخور يقذفه بها كُلما أراد، رأيتُ كم كبير يتبعه كقطيع الخراف حتى أدركت أنني أصبحت واحدًا منهم، أقاموا لي طقوس فذبحوا ذبيحه لطخوا بدمائها وجهي وهم يتفوهون بتعويذاتهم البلهاء، أصبحت كدمية متحركة أو عرائس الماريونيت يُحركها دجالين بخيوط، أتنقل ما بين أطباء وشيوخ ودجالين، أصبحت مهددًا من كل شيء ماضٍ تتكرر أحداثه ربما. مستقبل أشتم بوادره من الماضي، عملي الذي تغيبت عنه وأخفيت كل شيء عن فريدة، لا أحب أن أكون عبء أو حالة استعطاف في قلب أحدهم، وهل ستوافق أن تستكمل علاقتها بشخص تائه مثلي؟ لا أعرف مقصدي! أم ستهجرني بعد أن سكنت جوف قلبي واختلط أريجها بأنفاسي؟ أم لا يوجد فريدة من الأساس؟ جحظت عيناي فجأة عندما فكرت في هذا، أيعقل أن تكون كل الأحداث وهمية؟ أيعقل أن لا يكون هناك فريدة؟ ولما لا يكون هناك طبيب أيضًا؟ ما معنى حركتي من هنا لهناك، ذهابي يوميًا للطبيب، مقابلاتي لفريدة! أكل هذا أوهام؟ أحق ما قال الطبيب:

- المريض يا آدم مش بيكون حاسس بنفسه.

أوهام؟
هلوسة؟
علامات استفهام جابت أرجاء ذهني ولَمْ تتوقف ليلتها الأفكار التي تراودني.
أفقت من أفكاري عندما انتبهت إلى والدتي وحديثها الذي لَمْ أستمع منه شيئًا، ركبنا السيارة ووقفتُ أمام الفندق الذي سيستقبلنا لآخر ليلة في القاهرة، فوقفت وودعـتُها قبل أن أقول مُدعيًا:
- اتفضلي أنتي يا أمي، أنا هروح لواحد صاحبي ماشوفتوش بقالي كتير.
- الوقت متأخر يا آدم!
- متقلقيش.
- ماشي يا حبيبي، متتأخرش.
تحركتُ بالسيارة غير مُحدد وجهتي، لمحت جبلًا عاليًا عرفت أنه المقطم، سلكت طرقاته حتى أعلى قمته، نزلت من السيارة وأنا أفتح مسجلها، تركت باب السيارة مفتوح واستندت عليها في ليلة كان الهواء فيها هادئ، كان الصمت سائد والمكان فارغ لدرجة موحشة ولكن جيدة بالنسبة لي، السماء على بعد ظننتها أقرب مما أتخيل، يرصعها نجوم كثيرة ينبثق منها ضوء أبيض خافت والقمر كدتُ أن أمسك بهِ، أنوار القاهرة من تحتي مشوشة، أشعلتُ لفافة كانت الأخيرة في علبتي فمررتها في فمي واستنشقت بوادر نيكوتينها بعمق، جبلٌ عالٍ بما يكفي ليجعل أضلعي عجين فلاحي، إذا فعلتها! يبدو أن شيطان نفسي يوسوس لي فلم أقو على المكوث أكثر من ذلك، حتى لا ألقى حدفي من فوق هذا الجبل الشاهق، ركبت سيارتي واتجهتُ إلى الفندق.
في بكرة الصباح قبل أن تشرق الشمس، عُدتُ أنا ووالدتي إلى الأسكندرية، ما أن لامست فراشي حتى دفنت نفسي تحت الغطاء أغط في نومٍ كالغريق.
كاد جسدي أن يُكسر عندما استيقظت في اليوم التالي، الجو حارٍ والعرق كسا عضلات صدري العاري وسروالي الذي كنت أرتديه، أزحتُ الغطاء وقاومت نومي لأسير مُترنحًا إلى المرحاض حتى اصطدمت بمرآته المتكسرة التي جعلت

وجهي نصفين، حدقت بها ووقفت كالمجنون أحرك يدي ورأسي عسى أن لا تتحرك معي، استشعرت جنون شاب بالغ يملك من العمر سبعة وعشرين عامًا مثلي، فتحت الصنبور وتركت رأسي تحت اندفاع مياهه، عدتُ إلى غرفتي لأستطلع الساعة فوجدتها الثامنة، لَمْ أقدر على تحديد أصباحًا أم مساءً إلا عندما تنبهت للظلام خارج النافذة.

حدثتني نفسي بالذهاب إلى الطبيب فارتديت ثيابي وركبت سيارتي لأصل إلى العيادة، استقللت المصعد ودخلت العيادة الفارغة، أومأ حسن برأسه إيجابًا للدخول، حياني الطبيب وجسلت على الكرسي وأنا اتخذ شهيقًا عميقًا.

رمى الطيب طرف عينيه إلي ثم أردف:

- إزيك يا آدم؟

أرخيت رأسي للوراء ثاقب النظر لسقف الحجرة:

- هو أنت موجود ولا أنا بكلم نفسي!

- موجود يا آدم.

- والله أنا ماعنت مصدق إن أنا عايش أصلا.

- أحكي طيب يا آدم، إيه اللي حصل ؟

- أعجبت، حبيت، وبحبها فعلًا، ومش هلوسة، المشكلة أن دا كله جايز يكون حلمت أو حصل موقف زي دا قبل كدا، وبرضوا مش بنتبه ليه إلا لما الموقف يحصل، أنا حاسس انى متقيد، مربوط بحوادث لازم تحصل لي، دا مش يمنع إني بحب فريدة.

سكتُ للحظات ثم أكملت بصوت خافت:

- أنا بحبها.

قاطعني الطبيب فجأة وأردف:

- «ديجا فو Déjà vu »

اتسعت مقلتاي بدهشة متسائلًا بصمت وعلامات الحيرة تكسو وجهي:

-!!

- " كلمة بالفرنسية معناها "تم رؤيته من قبل"، شعور بيشعر به الفرد أنه عاش الموقف الحاضر وأنه حصل قبل كدا، بتلازم شعور بالرهبة والغرابة، يتوهم أنه عاشها في أحلامه بس بعض الحالات أثبتت إن اللي شعر به موقف سابق حقيقي، وحصل فعلا في الماضي ودلوقتي بيتعاد، وليها أبعاد.

تم رؤيته سابقًا. déjà vécu

تم الشعور به سابقًا. déjà senti

تم زيارته سابقًا. déjà visité

التف الطبيب بحركة دائرية حولي وهو يكمل:

- الإنسان مننا بيوصل لمرحلة معينة إنه يقف عند بعض اللحظات في حياته وبعض المواقف ويقول أنا شوفت دا، أنا حصل لي الحادث دا، بس بيسأل نفسه شوية أسئلة مهمة، أين ومتى وكيف؟

التفسير العلمي للظاهرة إن في شذوذ في الذاكرة وإنها بتعطي مشاعر أو معلومات خاطئة للمخ إننا عشنا الموقف اللي حصل قبل كدا بس مش متذكرين التفاصيل.

-!!

مصيدة تطبق على لساني، وأخرى تشل حركة يدي ورجلي والأخرى جعلت عقلي مشتتًا، صامت، جالس لا أفهم، لا أتحرك، مندهش من وقع كلماته، فأكمل الطبيب بعد نفس من سيجارته.

- عندك أصدقاء يا آدم؟

ضحكت بسخرية لأستعيد اتزاني وقلت:

- هيفيد في إيه؟

أعاد الطبيب سؤاله:

- عندك أصدقاء يا آدم؟

- آها عندي.

- مين أقرب صديق ليك؟

حدقت فيه بغرابة:
- الأسئلة دي هتفيدك؟
- يمكن.
- مُراد صديقي من أيام الدراسة من ابتدائي.
- ممكن موبايلك أعمل مكالمة يا آدم؟
توجست خيفة ولم أستوعب ما يُفكر به الطبيب فقلت في غياهب عقلي.
- هو الدكتور أتجنن ولا إيه؟!
أعطيت الطبيب هاتفي واسترخيتُ على الشيزلونج حتى أعاد إلي الهاتف دون إجراء اتصال بادعاء أن الرقم مغلق.

(٦)

تسيل قطرات الندى على النوافذ في ليلة شتائية قارصة البرودة، من يسترق النظر من الخارج يرى جميع النوافذ مُعتمة يكسوها السواد القاتم، شركة تم هجرها من قبل الموظفين عند الانتهاء من تأدية عملهم إلا نافذة واحدة تنبعث منها بعض الأضواء البيضاء من شاشة الكومبيوتر والتي لَمْ تضف للغرفة اكتمال وضوحها، انتابني إرهاق شديد جراء أيام من العمل الدؤوب المختص، جالس على الكرسي منكس الرأس أنظر أمامي ويداي في خط مستقيم للكتابة على لوحة المفاتيح، فكان قسطًا لراحة جسدي المنهك أقل حقوقي، فأزمة الشركة المتعرضة لها في الآونة الأخيرة جعلتني أمارس عملي بانتظام وأتابع كل شيء بحذر بالغ بحكم مهامي، كأخر كل شهر من كل عام منصرم أبعثر في أروقة الملفات والدوسيهات الممتلئة بالأتربة والتي انكمش ورقها كالورود الذابلة لأجرد عام انصرم لكي أتعرف على أرباح وخسائر الشركة فأنال نصيبي من التعب الجسدي، فبعد دورة شمس وقمر من العمل استرخيت بجسدي على الكرسي للوراء لأستمع إلى طقطقات عمودي الفقري حتى تثاءبت مستشعرًا ثقل جفني وعيني التي تتشعب منها خطوط حمراء كالبرق وبعض الدموع التي تقطنها والسواد المُتمركز أسفل عينيّ فاستسلمت للنوم الذي لَمْ يقدر عليه كافيين قهوتي لاستكمال ما بدأت حتى نمت.

استيقظت على رنين هاتفي، فحاولتُ أن أفتح عينيّ ببطء وأنا أحاول مفاداة الأضواء المنبعثة من الكومبيوتر بيدي، لَمْ أتعرف على الرقم فاستعدت وضعيتي المرخية وتثاءبت ثانيةً واضعًا راحتي على فمي وأسترقت بعض ساعات من النوم.

قطعت النافذة الصمت، عندما فتحت من شدة الهواء فاستيقظت منزعجًا

من صوت عزيف الرياح وأوراق الشجر المتطايرة في الشارع، كسر سكون الشركة رنين هاتفي الذي لَمْ أعره اهتمام وحاولت إغماض عينيّ جراء صداع الاستيقاظ من النوم فكظمت حنقي لوجوب صحوي في هذا الوقت للعودة للمنزل، استطلعت ساعة الكومبيوتر فشككت في صحتها حتى استطلعت ساعة معلقة على الحائط فوجدت عقاربها تشير للعاشرة، هممت إلى المنزل للاستمتاع بإجازة ستدوم لأسبوع كامل من اليوم، تأكدت من إغلاق وتأمين كل شيء وغادرت الشركة، ركبت سيارتي فاهتز هاتفي ثانيةً قبل أن أردخ له وأضغط على زر الإجابة. لَمْ أتمتم بكلمة، انتظرت عدة ثوانٍ حتى بادر المتصل .

- مُراد معايا؟

- أها، مين معايا؟

- دكتور لطفي السيد.

تعجبت وغلفني الصمت لوهلة، توقفت عن دس المفاتيح في السيارة وقلت:

- خير!

- خير إن شاء الله، كنت عايز أقابلك ضروري بخصوص موضوع مش هينفع أكلمك فيه في الموبايل، وبالمناسبة الموضوع بخصوص صديقك آدم.

- أنت مين وتعرفنى منين؟

- كل دا هتعرفه أما نقابل بعض، بكره الساعة ٦ في كافية السحيمي في سموحة.

- مين معايا؟

- دكتور بيعالج صديقك.

ذهلت وأنا أكمل:

- بتعالجه من إيه؟

- بكره هتعرف كل حاجة المهم أن كل حاجة تفضل سرية واوعى تقول لآدم حاجة.

- أنا مش فاهم حاجة!
- بكره هتفهم كل حاجة.
- ومفهمش دلوقتى ليه!
- مش هعرف أفهمك في التليفون؟
شُل لساني فاستكمل قائلًا:
- هستناك الساعة ٦ متنساش، سلام.
تبدلت ملامحي وأنا أتبادل نظراتي للهاتف مُتعجب من حديث هذا الطبيب حتى نسيتُ شأن النوم وإرهاقي، دسستُ المفاتيح وتحركت بسيارتي وعقلي يطرح تساؤلات لا إجابة لها.
حينما وصلت للمنزل لَمْ أهتم بشيء غير فراشي ففردت جسدي المنهك، استرخيت بظهري عليه كفراشة تخرج من شرنقتها لا تقوى على التحليق، ثاقب النظر للحائط بشكل مُستقيم، حتى تنبهت أذني لصوت دقات عقارب الساعة فالتفت برأسي لأستطلعها.
الرابعة فجرًا.
لَمْ أشعر بالوقت يمضي وأنا أتذكرتفاصيل المكالمة، غِلظة صوته، عدم بوحه بالكثير لكي أفهم عما يتحدث! حتى أُجهد ذهني من كثرة التفكير وثقل جفناي لأغط في النوم.
ظللت أركض بلا توقف في فراغ فسيح لَمْ أجد له نهاية، انهال عرقي اللزج حتى غصت فيه، ألهس كالكلب ليخرج لساني للأمام، خلفي يجري أسد أصفر فاقع لونه يكشرعن أنيابه. لمحت عيناي أسنانه المتراصة ونابيه المُدببين تستعد لنهش فخذي الثمين، وشعره الأصفر المرسل على عنقه وعيناه البنيتان كُلما ضربتمها الشمس توهجوا، علا زئيره الغليظ حتى كاد صدى صوته يسقطني أرضًا ناظرًا إلي بغضب فاتحًا فكيه المريبين، ظللتُ أركض محاولًا الهرب دون تحديد وجهة أتوارى فيها، أجري في صحراء جرداء لا أعرف مقصدًا فيها حتى تحولت الرمال الصفراء من تحتي لتربة طينية، تنغرس رجلاي في الوحل

فتبطئ حركتي كلما تعمقت حتى خارت قواي وتيبست عضلاتي، فلبثت مكاني منتظر أن ينقض الأسد بفكيه الكبيرين ونابيه المدببين على عنقي فيكسرها من قضمة كما كُنت أشاهد في الأفلام الوثائقية، انتظرت لأكون وليمة لمعشرالأسود، ينهالون على لحمي، يتلذذون بكبدي وقلبي وطحالي وباقي أعضائي ويروووا عطشهم بدمائي، حتى تفتك النسور الهائمة في السماء ببقاياي ليتركوا رُفاتي بلا قبر يسترها.

انتفضت مستيقظًا بدون منبه ينتزعني من نومي حتى كاد أن يتقوس عمودي الفقري من شدة الفزع، التفت حولي يمينًا ويسارًا لأستكشف الغرفة، فلم أجد رمال ولا أسد ولا نسور ولا تربة طينية، جسدي يرتجف رغم حرارة الجو، جاهدت لأمتص ريقي فلم أجد لعابًا لأمتصه، شفتاي متشققتان من الجفاف ومرتعشتان، وسوست ببعض المزامير الخاصة بالقلق التي أحفظها عن ظهر قلب بعد كابوس سرت القشعريرة في بدني منه.

عندما انتهيت من خلوتي تكهنت أن الوقت عصرًا من انبعاثات الشمس المتسللة لغرفتي، ما لبثت حتى استطلعت ساعة معلقة تقبع خلفي فوجدتها الخامسة إلا ربع فتذكرت موعد الطبيب، عدلت عن الفكرة للحظات قبل أن أعقد العزم على الذهاب، ارتديت ملابسي غير مهتم بوقاري على غيرعادتي، نزلت درجات السلم واستقللت تاكسي للكافية، كافية يطل على البحر بلا سقف يحميه، دلفت بابه وأنزلت نظارتي السوداء قليلًا لتسكن على طرف أنفي، يتابع بؤبؤا عيني الجالسين لأظفر بحركة أحدهم فأستدل على الطبيب حتى لحظني بوقفتي الحائرة فأشار بيده إلي، رجل يفوق منتصف العمر، خمسيني بدين، تجعدت ملامح وجهه، كما أن له بطن تتدلى نتيجة ألوان لا حصر لها من أنواع الطعام، وخصلات شعر ولحية لَمْ تسلم من البياض، يجلس بهدوء وهو يرتشف فنجان قهوته بوقار، ذهبت للكرسي المقابل له وأنا ألقي بنظارتي على الطاولة، ساد الصمت لفترة تبدلت فيها ملامح وجهي، منتظرًا أن ينبس بكلمة بعد صوت رشفاته الرتيب للفنجان، طلبت من النادل قهوة

تؤنس صمتي وتوقظ جفني، شارد، منتظر أن يفتتح حديث لا أعلم مغزاه.
هادئ، بارد، قاتم وجهه وصوت رشفه للقهوة يعكر صفو مزاجي، حتى انكب غضبي على ملامح وجهي، امتصصتُ ريقي وأنا أجز على أسناني كأنني أستعد للهجوم على فريستي:
- ممكن أعرف أنا هنا ليه؟
بهدوء أكثر مما اعتدت كأنه يحاول أن يستنفذ طاقتي ليستفزني حتى كدت أن أغادر، خلع معطفه وأسكن فنجان قهوته على الطاولة بهدوء ثم قال:
- صاحبك محتاج لك.
- إزاي؟ فهمني، محتاج لي إزاي!
- آدم في حالة نفسية نادرة ومحتاج مساعدتك.
تبدلت ملامح وجهه إلى العبوس فزفرت في ضيق:
- حالة إيه؟ واساعده إزاي؟ أنا مش فاهم حاجة!
اقتلع سجائره، مرر واحدة في فمه، مشعلها بقداحته التي انطفأت مرارًا من الهواء، مد يده بسيجارة رفضتها فأعادها وألقى العلبة على الطاولة، لَمْ يبال بثورتي التي لاحظها في وجهي وشرار مقلتيّ.
الحقير! يبتزني لعمله أنني لن أغادر حتى الاطمئنان على آدم.
- هتتجسس عليه، هتشوف هو بيحب واحدة اسمها فريدة ولا لا، هتشوف يومه عامل إزاي وتيجي تحكي لي، بس قبل ما تحكي لي هحكي لك أنا يوم آدم اللي هو حكهولى عامل إزاي وإيه اللي حصل فيه، عايز اشوف مدى التطابق بين حكايتك اللي هتجبها من التجسس عليه وبين اللي هو بيحكهولى، مش تخاف مش عايز منك غير موقف على الأقل أتأكد بيه من تشخصيي للمرض بتاعه.
ملأ فراغ عقلي بعلامات الاستفهام التي لَمْ أجد لها أجوبة نهضت من مجلسه لأتكئ على السور شاردًا في البحر وبداية الشفق وقرص الشمس المائل للغروب
.

نظرت لهُ وقلت مُتسائلًا:
- مش فاهم، آدم ما له؟ في إيه؟!
- حالة نفسية ومحتاج مساعدتك مش أكتر.
احمر وجهي واشتد غضبي حتى انتفضت عروق وجهي وأنا أحاول السيطرة على نفسي حتى لا أقذف فنجان قهوتي في وجهه، فأردفت بغضب:
- حالة نفسية زي إيه؟
- هتفهم كل حاجة في وقتها.
ترك كرسيه ووقف بحذائي مستنشقًا نفسًا عميقًا كان الأخير من سيجارته ثم ألقى بها في البحر ونظر لي ثم قال:
- تفتكر دكتور بعد سنين التعليم دي كلها متعلمش إزاي يحافظ على البيئة وميرميش سجايرفي البحر؟
- عايز توصل لإيه؟
انسحب في هدوء محاولًا الحد من غضبي وأتم:
- دكتور بيشخص حالة مريض وعايز مساعدة صديقه، ولا عايز بعد سنين التعليم دي كلها يقولوا دكتور معرفش يشخص حالة مريض، زي ما قالوا معرفش يحافظ على البيئة نضيفة، رقمي عندك، متنساش اللي اتفقنا عليه.
غادر اللعين تاركًا رأسي تدور كحلقات الذكر، استعدت شرودي مرة أخرى، مغرق في التفكير على حال آدم.
عند عودتي للمنزل اختلج قلبي الهم عندما تفكرت في شأن آدم، استشعرت رمحًا غُرس في جسدي حتى وطء نصله قلبي، مقدر دوري في الفيلم الذي طبعت فيه توقيعي ووافقت على شروطه، دور رحت أحسب أبعاده ومدى تأثيره على آدم، أعلم عواقبه لكن لن يكون لدي خيار آخر.
ينقضي أسبوع إجازتي ببطء رتيب بآلام نفسية وجسدية تعرضت لها من السهر والتفكير المفرط فيه، صرفت النظر عن التنزة مع أسرتي، لَمْ ألتزم

بواجباتي نحو الرب، صلاتي لَمْ أعد أؤديها، ذهابي للكنيسة لَمْ يصبح كما كان، جلست أصلي بخشوع أمام النافذة المواربة المطلة على السماء لينظر الله في قلبي وأنا أتذكر بعض كلمات الرب، حينما قال في الإنجيل المقدس.
" يصلي المؤمنون بكل الاتجاهات، والله يسمعهم ويقبل صلواتهم إن كانت نابعة وصادرة من قلوب طاهرة وعقول نقية ".
سمعت صوتًا ألفته لسنين، مريم، عذراء قلبي وزوجتي، أحست بتغير بدا واضحًا علي، جلست ساكنة بمقربة مني عندما تنبهت أنني في لقاء مع الرب، أتضرع إليه، أشكو ضعفي، وقلة حيلتي، تقصيري، يا يسوع أسعفني، يا أيها الرب اجعل خطاي بمشيئتك ولا تجعلني أختار بنفسي، وحدك يا يسوع وليس سواك، هبط العرق على جبيني وبدأ قلبي بالارتجاف حتى تحسست مريم تُعانق جسدي وتغوص بجسدها في بحر جسدي حتى هدأ ارتجافي بعدما استنشقت عبق رائحتها وتحسست نعومة أناملها وهي تُمررها علي، تضع رأسي مقاربة لدقات قلبها الهادئ وتضع يداها على رأسي لتغمض عينيها وهي توسوس في أذني.
استكان قلبي وهدأ ارتجافي وجف عرقي حتى سرت الطمأنينة في جسدي، استشرت رأيها فأكدت فعل التجسس لربما أكون سبب شفائه، استغفرت الرب عن الأفكار التي تراودني وأنا أرتدي ملابسي للذهاب لآدم، ركبت سيارتي وهممت بالذهاب، عندما استقللت المصعد اصطدمت بوجهي المُقلص في المرآة، حين صعدت وقفت أمام باب الشقة وأنا أحاول أن أواري قلقي، بيد مرتعشة طرقت الباب ففتحت لي والدة آدم، كانت جلستي المضطربة دلالة على شدة توتري وعيني غير مستقرة تستكشف ما حولي، هيأت نفسي لعدم لفت انتباهه حتى طل علي فعانقته، عناق استشعر فيه ذقني كثيفة الشعر والهالات الساكنة أسفل عينيّ، استشعرت فيه غرابة زيارتي، جلس حذائي وهو ينفث دخان سيجارته بشراهة وغمرنا الحديث الذي قطعته والدته وأسئلتها عن زوجتي ومارينا وفادي ابنيّ ثم ذهبت لإعداد فنجان قهوة عاجلتها

بطلبه، غادر آدم لبضع دقائق ليصلي العصر ورجع ليجلس بجانبي قائلًا:
- مقولتليش سر الزيارة المفاجئة دي؟!
تساقطت قطرات العرق على جبيني ورحت أبتلع ريقي بصعوبة مُحاولًا الهروب بعيني قبل أن أجمع بعض الحروف فتمتمت قائلًا:
- لا أبدًا، أصل...
تلعثمت:
- أصل، كنت بشتري طلبات للأولاد وكنت قريب منك فقلت أطلع أشرب فنجان قهوة معاك.
- مصلحة يعني.
ضحكت بافتعال وحفظتُ ألوان الحائط والستائر وأنا أحاول عدم النظر في عينيه فاستكمل قائلًا:
- المهم مش تنسى تكون موجود في كافية برونتو بكره بليل على الساعة تسعة .
- اشمعنى؟!
- هتعرف أما تيجي، تعالى بس انت.
قطعت والدته حديثنا وقدمت فنجان قهوتي المر فاعتذرت عنه وهممت بالذهاب إلى منزلي وحين وصلت اعترتني غفوة عميقة.

(٧)

أصبحت يوميًا أستيقظ على كوابيس لا حصر لها، أعتقد أنني حلمت بأكثر من كابوس في ليلة واحدة، ولكني لا أتذكر إلا واحدًا، أخذتني الكوابيس لرحلة عبر الأزمان، فعلت فيها كُل الخطايا وفُعل بي كُل شيء، جلستُ على الفراش كعادتي مغمض العينين خاشعًا مُنكسرًا، كُل صباح أبتهل للرب، أناجيه وأتحدث إليه عسى أن يُرشد ضلال طريقي ويلهمني الاختيار كما كان يُرشد العائلة المقدسة، أغمضت عينيّ بسبب خيوط أشعة الشمس المُنسلة من النافذة الخشبية مُربعة الفراغات فأغلقتها عنوة، عندما فتحتهما للمرة الثانية وقعت عيناي على صورة السيدة العذراء وبراءة وجهها وهي تحمل بين يديها وليدها ليستكين قلبي وتسري الطمأنينة في جسدي، قمت من الفراش وفتحت الدولاب حتى لمحت معطف ارتديته، أسبوع إجازتي لَمْ أنعم بالراحة فيه لكي أؤدي ما طلبه الطبيب مني وأتجسس على آدم، أوقفت تاكسي أقلني إلى منزل آدم بمسافة بعيدة وأنا أتخفى تحت نظارتي السوداء، انقضت ربع ساعة إلى الآن لَمْ يظهر، ظهر فجأة متجهًا إلى سيارته فطلبت من السائق اتباعه، فنظر لي السائق بحذر قبل أن يقول:

- في حاجة يا بيه؟

- متقلقش يا اسطى، خليك وراه بس.

طلبت من السائق أن يتوقف بمسافة ليست بالبعيدة حينما وصل للشركة، حاسبت السائق وتسللت مُتخفيًا تحت نظارتي السوداء إلى مقهى بالقرب من الشركة، مقهى بلدي قديم أظن أنه أول ما بُني هنا، لهُ مدخلان مُطلان على شارعين مختلفين يتوسطه عمود دائري أشبه بأعمدة البطالمة الذين سكنوا مصر، مُعلق عليه برواز كبير لصورة الرئيس جمال عبد الناصر ورواديو مُثبت

على طاولة عالية خُصص رُبما لأغاني السيدة أم كلثوم، انتظرت ساعات تجرعت فيها كافيين يكفي أن أظل متنبه وأن لا أرمش بجفني لعامٍ قادم، جالس في ركن مستند على حائط حتى مللت الانتظار وصوت رنين المِلعقة المُزعجة في كوب الشاي، لمحت بطرف عيني آدم وهو يخرج من الشركة، أسكنت فنجان قهوتي على الطاولة وعاودت ارتداء نظارتي واستقللت تاكسي لأتتبع خطواته، ساورني القلق عندما تتبعت خطواته إلى الكافية الذي طلب أن ألتقي به فيه لأراه وهو يدلف بابه، ظهرت ملامح الحيرة علي حين سألت السائق:

- هي الساعة كام يا اسطى لو سمحت؟

- الساعة سابعة يا بيه.

نال التفكير من عقلي واعتصرني الخيال وأنا أحدث نفسي:

- لو آدم محتاج حاجة مني ليه مش قالهالي أما كنت عنده. طيب، مديني معاد في الكافية اللي داخله دلوقتي ليه!. ولسه بدري على المعاد!

نزلت من التاكسي وحاسبت سائقه وظللت متربصًا في كافية على الجهة الأخرى من الطريق منتظر أن تُشير العقارب إلى موعد لقاءنا، انتظرت إلى أن أتى الموعد وعبرتُ الطريق ودلفت باب الكافية عندما أشارت عقارب الساعة إلى الثامنة والنصف، جلست في ركن فرأيته مقبلًا علي، جلس بجانبي ليقص علي قصة فريدة وإعداد عيد ميلادها، دار في عقلي كلام الطبيب مُصدقًا إياه وعيناي تكاد أن تفلت منهما الدموع، تمالكت نفسي وعقدتُ العزم على مساعدته بشتى الطرق.

برونتو كافية، نوفمبر، الـ٩ مساءً.

اكتسب المكان ميزة حلوة بهواء الشتاء البارد وثيابه الأنيقة، أخرجت هاتفي واتصلت لأستفسر عن سر تأخرها فأوضحت أنها على مقربة من الوصول، ما أن دلفت الباب حتى أضيئت أنوار ملونة إلى جانب الأنوار المضاءة فانكمش وجهها وأغمضت عينيها فانكشف كحلها الخفيف، انتابتها قشعريرة الفرحة من فرط الدوبامين فانفرجت أسارير وجهها الحنون بابتسامة خجلة اعتلت

وجنتيها حتى اغرورقت مقلتاها بصفاء لامع يضيف البهجة في النفوس، مددت يدي بهدية التقطتها بحياء امتزج بابتسامة رقيقة ارتسمت على وجنتها، دلفنا باب الكافية وسلكنا طريق لقائنا الأول.

الشاطئ.

نسير على الرمال ببطء بينما تُداعب الأمواج أنامل أرجُلنا، متشابكين اليدين، تفوح الرياح فتضرب بقوة فستانها الواسع ليتطاير عن يمينها وشمالها كجناحي فراشة تحلق في الفضاء السحيق، تسترسل خُصلات شعرها الكستنائي ليغطي كتفيها، تقف وهي تتطلع وقفتي لأعلى فتمتمت بصعوبة:

- تعرف، كنت حاسة أنك هتعمل مفاجأة.

باغتها بردي:

- بحبك.

اندفع الدم ليتجدد في وجهها ليختلط ببياضها، نكست وجهها في الرمال واستكانت يداها بهدوء في يدي، خيم الصمت لفترة لَمْ تنظر إلي فيها، وجنتاها زادتا احمرارًا، تبدلت ملامح وجهها بخبث طفلة صغيرة تداري لعبة تملكها وهي تلمحني بعينيها التي تبرق من شدة سوادها، نظرت إلي ولمعت نجوم عينيها محركة شفتيها المرتعشتين لتتمتم بصوت مبحوح:

- وأنا كمان.

صمتت للحظات ثم قلت:

- وانتى كمان إيه؟

تلعثمت:

- وأنا كمان بحبك يا آدم.

نظرت للسماء وأنا أتنهد من استنشاق نفسًا طال زفيره، نظرت إلى عينيها لأقرأ ما تبوح به كأنني ابن الهيثم أستكشف ما داخلها.

انحنيت لأسكن قبلة على جبينها، فاتسعت حدقتا مقلتيها وخفق قلبها بقوة أجراس كنيسة، أمسكت راحتيها بهدوء فاشتبكت أيدينا بحركة تروق للعشاق

حتى أكملنا سيرنا على رمال الشاطئ غير عابئين بأمواج البحر، ولا فحيح الرياح تاركين آثار أقدامنا خلفنا في ليلة غاب قمرها السماوي الذي تجلى على الأرض بشكل بشري أنثوي.

* * *

سرت الأحداث أمام عينيّ عندما احتفلت بعيد ميلادها، تتابعت الأحداث كأنه فيلم أشاهده للمرة الثانية، وكالمعتاد تذكرت في لحظة حدوثها كأني رأيتها على شكل رؤية، ربما، لا أعلم.

* * *

أستشعر كلام فريدة تردُده بعيد، الحروف تدخل أذني بلا فائدة، غير منتبه لما تقول، جالسة بجانبي وأنا كالريبوت في قيادتي للسيارة، فأصغيت فجأة إليها عندما سمعت ترديد اسمي مرتين متتاليتين، حاولت أن أواري تشتت ذهني بخفة ممثل أجاد الدور، غرست رجلي بدواسة الوقود لأزيد من مؤشر السرعة، وقفت أمام منزلها وودعتها كأن شيئًا لم يكُن. أخرجت هاتفي المحمول وأنا أتصل بمُراد لينتظرني في الكافية بعدما ودعني حينما قالت فريدة.

الوقت مُتأخر، رغم عدم ارتدائي ساعتي إلا أنني أظن أن الساعة تخطت الثانية عشر، كان الجو باردًا جدًا، درجة الحرارة قاربت السالب تقريبًا والرياح تتأهب للانقضاض علي ريثما أخرج من سيارتي، عندما وصلت إلى الكافية كانت الاحتفالات بداخله تبدلت من عيد ميلاد إلى ديكورات لبابا نويل واستقبال سنة جديدة، دلفت الباب لألمح مُراد يجلس على كرسي ثاقب النظر شارده، ينظر للطريق من النافذة فقطعت صمته عندما جلست مستنشقًا زفيرًا لينظر لي بعين يشوبها الاضطراب قائلًا:

- مالك يا آدم؟

- تعالى بس نطلع بره بدل الدوشة دي.

- تمام، يلا.

خارج الكافية حيث الشاطئ يمينًا وحديقة خضراء صغيرة هجرها روادوها للاحتفال في الكافية، أعاد علي سؤاله قبل أن تطء أقدامنا العشب الأخضر فجلست على كرسي غير مبال لسؤاله الذي كثرت علامات استفهامه لطالب بليد يائس مثلي، لا يجد له جوابًا حتى تبدلت ملامح وجهي للعبوس وظللت لدقائق غير قادر على الحراك، التفكير، الكلام، فتهتهت قائلًا:

- مش عارف ومش فاهم حاجة، كل اللي فاهمه إني تعبان!

جحظت عيناه وقال:

- في إيه يا آدم؟ تعبان من إيه؟!

- كل حاجة بتحصل لي بحلم بيها أو حاسس إني شوفت أو عيشت الموقف دا قبل كدا.

رمقني بحيرة ليطبق الصمت، صريخ الرياح يجتاح آذاننا ويعبر من بين جنباتنا حتى هدأ قليلًا ليصبح كفحيح الأفاعي، فحركت شفتيّ بعد فترة صمت قائلًا:

- حلمت بحادثة وفعلًا حصلت والحمد لله جت سليمة، الحب...

قطعت حديثي بضحكة ساخرة عندما تفوهت بكلمة "حب"، لأستكمل:

- حتى الحب اللي مكنتش لاقيه غير مع لمياء الله يرحمها.

قاطعني:

- الله يرحمها.

استكملت:

- لقيته مع غيرها وحبيت، الحاجة بتحصل يا مُراد وافتكر إني حلمت أو شوفت المشهد دا قبل كدا، بتفرج على فيلم حياتي مرتين، مرة حصري مش بفتكر منها حاجة والمرة التانية بتهيج المرة الأولى فبحس إني شوفت الفيلم قبل كدا، أعجبت بفريدة اللي كان عيد ميلادها النهارده وحبيتها وفعلًا أنا بحبها بس كل دا حاسس إني شوفته قبل كدا حلمت بيه قبل كدا، تصدق لو قلت لك إني في أحداث العيد ميلاد وقفت مذهول قاعد أفتكر إني شوفت الموقف دا فين قبل كدا!

- أنا مش فاهمك يا آدم، وضح!
- ولا أنا فاهم نفسي!
- بتحلم وبيتحقق ولا إيه اللي بيحصل لك بالظبط؟
- حاجة زي كدا، مش عارف!
-.!
قلت بعد تنهيدة:
- يلا نروح دلوقتي أنا تعبان، مع الوقت هتفهم كل حاجة.
- مستحيل أسيبك وانت كدا.
- أنا بخير يا مُراد، هقوم أنا سلام.
ودعت ملامحه الحائرة قبل أن أغادر المكان، استقللت سيارتي إلى المنزل، جلست بغرفتي أتطلع إلى ملامح صوري منذ الصغر، شعري المسترسل على عينيّ وملامح البراءة تزدهر بوجهي، طفل مُدلل عشت مع والدي رحمة الله عليه، اقشعر بدني فجأة عندما تذكرت كلمة الطبيب "ديجا فو"، وقعت الكلمة على أذني بغرابة، جلبت "اللاب توب" وضغط على زر التشغيل لأتجه " وأبحث عن كلمة ديجا فو.googleإلى محرك البحث "
استخرج لي البحث ما وددتُ، فقرأتُ مقالات لم تضف أكثر مما أضاف الطبيب، بدا لي كُل شيء مُحبط وغير مُجدٍ فمللت، أشعلت سيجارة واستنشقتُ نفسًا منها حتى حدقت بتلهُف عندما لمحت عيناي تفسيرات عديد لهذه الظاهرة تقول.
الديجافو وتعني تم رؤيته من قبل؛ هي حالة يشعر بها الفرد بأنه عايش الموقف الحالي من قبل وفرضت بعض الفرضيات ومنها.
- فصي الدماغ:
حيث أن الدماغ تنقسم إلى فصين، فص أيمن وآخر أيسر يعملان معًا، ولكن ما يحدث أن أحد الفصين يسبق الآخر بجزء من الثانية فتصل المعلومة إلى الفص المتأخر وعندما يُدرك الإنسان ذلك يشعر وكأن هذا اللحظة مرت عليه

من قبل.
وهي مُرتبطة بتفسير آخر يتحدث عن النظر:
اختلاف جزء من الثانية بين العين اليمنى والعين اليسرى، حيث أن الأحداث تُسجل في العين التي تسبق الأخرى التي تُسجل الصورة في الذاكرة؛ لذلك أحيانًا الشخص يرى الشيء ويعتقد أنه رآه من قبل، ولكن هي مجرد عين سبقت الأخرى.
دسستُ السيجارة في المنفضة محاولًا التركيز وأنا أقترب للاب توب معيره اهتمامي، وجلست منتبه لما أقرأ عندما تحسست وقع الكلام، راحت عيني تلمح وتقرأ ما تراه في اندهاش.
وتفسير آخر عن الذاكرة:
بعض المشاعر المؤقتة قد تجلب مشاعر حدثت مُسبقًا محفوظة في الذاكرة.
وهناك تفسير يقول أن الديجا فو ما هي إلا محض وقائع عايشناها من قبل وقد تم نسيانها وعندما نكون في وضع مماثل لهذه الأحداث والمواقف فإننا نستعيد الذكريات القديمة.
وتفسير آخر جعلني أتنبه، تجربة ما قبل الولادة:
يوجد بعض الذين يقولون أن هذه الظاهرة سببها تجربة ما قبل الولادة، حيث أن الروح قبل أن تنفخ في الجسد تعيش كل لحظة سيعيشها الإنسان، ولكن عندما تدخل الجسد تنسى الحياة التي عاشتها في السابق وتبدأ حياة جديدة وقد تحدث بعض اللحظات التي يتذكرها الإنسان فيظن أنه عاشها من قبل ولكن لا يتذكر متى وكيف وأين؟
ويقول آخرون أن الإنسان عندما يكون في بطن أمه وأثناء النمو يُشاهد شريط حياته بالكامل ولكن لا يتذكر منه إلا الديجا فو أي بعض اللحظات والمواقف.
لمحت بطرف عيني كلمة الأحلام لتجحظ عيناي وأزداد تيقظًا وانتباهًا وأنا أقرأ.
في كل مساء يحلم الإنسان بمئات الأحلام إلا أنه عندما يستيقظ لا يتذكر

تسعين بالمائة من الأحلام، إلا أنه من الممكن أن يتذكر أخر حلمين في تلك الليلة، ويقول الذين يفرضون هذه الفرضية أن الديجا فو ما هي إلا أحلام من الأحلام العديدة التي يحلم بها الشخص وينساها وعندما يمر بمشهد مماثل بذلك الذي في الحلم يظن أنه قد عاش هذه اللحظة من قبل.

التقطت آلتي الصغيرة لصنع لفافات التبغ ولففت واحدة وأكملت قراءة تحت دخانها.

نظرية الأكوان المتوازية:

واحدة مِن أغرب النظريات التي يثبتها العالم (ستيف وينبرج) الحائز على جائزة نوبل، ببساطة نظرية الأكوان المتوازية تتحدث أن هناك عدد لا نهائي من الأكوان وكل شخص يعيش على كل كون منها بشخصية مختلفة ومن هنا يحدث الديجافو بمجرد رؤيتك لموقف على الأقل شعرت بهِ من قبل، لكن الحقيقة إنهُ بالفعل قد حدث ولكن في كون آخر بشخصيتك الثانية المُختلفة.

ونظرية أخرى جعلت حاجبيّ يرتفعا.

- نظرية تناسخ الأرواح:

نظرية توجد في بعض الديانات مثل (الهندوسية والبوذية) تتدعي أن الإنسان عندما يموت جسده روحه، تظل في دورة ليس لها نهاية، حيث أنه عند موت الجسد تنتقل روحه إلى جسد آخر وتعيش فيه ومن الجائز طبقًا لكلام الديانات الأخرى أن الإنسان يعيش اللحظة مرة ثانية.

وفي نهاية المطاف قرأت.

يرى عُلماء الباراسيكولوجي -ما وراء علم النفس- أن ظاهرة الديجافو حاسة سادسة لدى الإنسان حيث أن عقله يتنبه ويصل إلى هذه الأحداث والوقائع قبل أن تحدث.

تبدل دمي وسرت الطمأنينة فيه عندما قرأت أن كل التفسيرات الحالية لتفسير ظاهرة الديجا فو غير مؤكدة،

غير أنني لمحت ودققت بمقلتيّ النظر لأقرأ Jamais vu جامى فو.

وتعني المألوف المنسي وتابعت عيناي القراءة، لم أره من قبل.
حالة يكون الإنسان غير قادر على تذكر شيء مُعتاد له، إذ يشعر أنه لم يشاهد الموقف من قبل على الرغم من أن عقله الباطن يخبره عكس ذلك، كإنسان يجلس في مكان يألفه ويأتي إليه من حين لآخر أو يتحدث مع شخص يعرفه ثم ينتابه شعور فجائي أنه لا يعرف هذا المكان أو هذا الشخص وهي عكس ظاهرة الديجا فو.
نظرت للغرفة من حولي وبسخرية وسوست لنفسي:
- لا أنا فاكرها وفاكر فريدة ومُراد والدكتور وكل حاجة.
أغلقت اللاب توب قبل أن أجن وأنا أدعك بيدي عيني شديدتي الاحمرار، وترنحت إلى الفراش وألقيت جسدي عليه مستسلمًا لنومي.

02

(٨)

تذكرت حديث آدم عن هواجسه لينال التفكير من رأسي عندما رجعت للمنزل، وفي اليوم التالي حينما استيقظتُ قاومت جلستي على الفراش وارتميت بخمول على الأريكة، استعدت ذاكرتي كآلة للزمن لسنين ماضية استعدت شريطها بصعوبة ونفضت ترابه، شريط ذكريات في ذاكرتي لأكثر من تسعة عشر عامًا، تذكرت فيه أيام الابتدائية مرورًا بالإعدادية والثانوية والجامعة التي كانت محفوفة بالجمال، لمستُ فيها حبه للمياء وحالته النفسية بعد وفاتها غرقًا في أخر رحلة للغردقة، أفقتُ من ذكرياتي وتركتها خلف رأسي وخرجت إلى الحمام وأخذت حمامًا باردًا وهندمت لحيتي، ترنحت إلى الدولاب وارتديت ملابسي قبل أن أذهب إلى الكنيسة، عندما وصلت انغمست وسط المُريدين كالتائه، وما أن جلست في الصفوف وهدأت الضوضاء واستكان كُل منا في تضرعه للرب حتى لامست كتفي امرأة عجوز ظننت أنها تخطت المائة عام من تجاعيد وجهها المتراكمة والعروق الواضحة، وهي تتوارى خلف سترة سوداء، ما أن ربّتت على كتفي حتى أحسست بدمي يهيج في جسدي، رمقتني وهي تقول بنبرات صوتها الضعيف:

- يسوع يكمن بداخلنا يا بُني.

جحظت عيناي ومُلئت بالحيرة، كأن هذه السيدة العجوز تعلم ما بداخلي، أو ربما روحي القابعة بداخلي خرجت من جسدي لتواسيني أو كأنها بُعثت إلي من السماء لتهدئ من روعي، قالت كلماتها واستعادت سكونها وأنا أنظر إليها باندهاش حتى عاودت خشوعي، حين غادرتُ الكنيسة في مُنتصف اليوم بعد أن تنفحت ببركاتها واستنشقت أريجها وبعث الرب لي ما يطمئن قلبي، غادرت متوجهًا إلى مقصدي لتنل مني أشعة الشمس الحارقة عندما كنت

في طريقي للطبيب، ابتعت من بائع الجرائد صحيفة اليوم وأوقفت تاكسي استقللته للعيادة، جالس في الخلف أبعثر أوراق الصحيفة لأخفف عن رأسي ضجيج زحام السيارات، باغتتني كحة من عوادمها، أغلقت نافذة التاكسي حتى تلقيت سؤال من السائق وهو ينظر إلي في مرآته الأمامية:

- أخبار البلد إيه يا بيه؟

لَمْ أجيب سؤاله فاستكمل:

- بيقولوا الأسعار غليت، بالك انت رايح ازود بنزين من يومين لقيته غلي.

ارتفع كتفاي بمحاذاة شحمتا أذنيّ وظلت شفتاي ساكنتان حتى لا أفتتح حديثًا لن يُغلق، حين وصلت حاسبت السائق ونزلت من التاكسي بقطرات عرق كثيفة متدلية على جبيني ونفسًا أوشك على النفاذ ودهون بطن اكتسبتها في الآونة الأخيرة لَمْ تعتاد أن تغامر بصعود خمس طوابق لعيادة الطبيب، انتظرت المصعد حتى ركبت فيه لأصل للعيادة، طلب مني السكرتير الانتظار لدوري، جلست في زاوية غرفة الانتظار غارقًا في وجوه البشر لأصيغ سببًا يجعلهم يأتون لطبيب.

أنظر لوجوه زاد اضطرابها وضرب البؤس ملامحها، انتظرت قرابة النصف ساعة يعمها الصمت حتى التفت إلى نقاش حاد بين أحد المرضى والسكرتير لتعود الأمور لسابقها، أغمضت عيني دقيقتين استعدت فيهما ذكريات طفولية لي ولآدم حتى فتحت عيني عندما التقطت أذناي مزلاج الباب يفتح لخروج أحد المرضى فالتفت السكرتير إلى وهو يومئ برأسه لكي أعبر باب الطبيب الذي استقبلني قائلًا:

- اتفضل يا مُراد.

اقتربت ناحية الكرسي المقابل لمكتبه فجلست وأنا أرتكز بساعدي، جلس هو الآخر وبدأ في سرد أحداث آدم:

- الكلام اللي حكتهولك دلوقتى مطابق؟

- للأسف!

أومأ برأسه عدة مرات قائلًا:
- مش للأسف ولا حاجة يا مُراد، كدا عرفنا راسنا من رجلينا ونعرف العلاج اللي يلائم حالة المريض.
- بس آدم فعلا بيحصل اللي بيقول عليه.
- بس بيحصل قبل ما يحصل، أقصد إنه بيحلم أو بيتهيئ له أنه شاف الموقف قبل كدا ودا مسبب له توتر وقلق.
أطبقت شفتي على فمي فأكمل:
- المرضى النفسيين كتير يا مُراد، لا، لا، لا أحنا كلنا أصلا مرضى نفسيين، المشكلة إن كل واحد فينا مش مشخص حالته، وبالتالي مش لاقي العلاج المظبوط لنفسه، أو بيوهم نفسه إنه مش مريض.
اقترب وسوس في أذني:
- وكلمة في سرك الدكاترة النفسيين دول هما أكتر ناس عندهم مرض نفسي.
رمقت عيناي علبة سجائر على المكتب فالتقطتها واقتلعت منها واحدة أسكنتها في فمي مُشعلًا النيران فيها لأستنشق أول نفس في حياتي، لينهال غبارها على رئتيّ فانتابني سعال، طمست السيجارة في المنفضة فأردف الطبيب:
- مش بقولك كلنا مرضى نفسيين.
قمت باتجاه الباب فاستوقفني وقع كلام الطبيب واستدرت إليه حينما قال:
- مش تنسى بكره يا مُراد تشوف يوم آدم عامل إزاي.
خلفتُه وراء ظهري ودلفت باب الخروج، حين وصلت البيت اسلقيت على الفراش حينما كانت عقارب الساعة تُشير للواحدة بعد مُنتصف الليل مُعلنة عن ميعاد الحنين واستقبال الذكريات حتى بزوغ النهار.
في صباح اليوم التالي استيقظت بدون أي مؤثر، استطلعت الساعة المُعلقة على الحائط فكأن الزمن وقف والعقارب لَمْ تعد تدور، قمت من الفراش وجلبت ساعة اليد من على الطاولة لأجد عقاربها تُشير للثامنة صباحًا فهرولت لارتداء ملابسي فارًا إلى المقهى المجاور للشركة مُتخفيًا وراء نظارتي السوداء لكي ألحق

بآدم.

* * *

كان هدوء لحن موسيقى بيتهوفن السمفونية الثامنة تنبعث من نوافذ سيارتي للعالم الخارجي، كانت الموسيقى تتحكم في دقات قلبي تُرسل روحي لعالم آخر، تتحكم في زماني وتاريخي بوقعها المُميز على أذني.
عندما وصلت للشارع المقابل لبيتي بعد يوم شاق من العمل وقفت بسيارتي وملتُ برأسي للوراء مغمض العينين كالقطط حديثة الولادة تاركًا عزف الموسيقى يعبر بروحي للسلام، علا صوت شهيقي وتفكرت في ذلك الفتى الذي ملأ قلبي، رُحتُ أتخيل استدارة وجهه المُشرق كقرص الشمس وأنفه الصغير، أدمنت عبق رائحته الجذابة، أنفاسه المتهدجة، والقبلة التي وضعها على جبيني فاقشعر بدني واندلعت نيران جسدي، فاستجاب القلب بنبضاته وسرى الدم يطوف بغير مقصد، عند انتهاء الموسيقى فتحتُ عينيّ وأخذت شهيقًا عميقًا، اعتدلت في الجلوس ثم فتحت باب السيارة، انحرفت حتى دلفت باب الحديقة الخشبي ومررتُ في الممر الأسفلتي الذي لا يتعدى عرضه مترين ووقفت في الحديقة لدقائق تفقدت فيهم العشب الأخضر على جانبي الطريق الأسفلتي وجزئي المُخصص لزراعة الياسمين الأبيض بدائرته الصفراء المُميزة وأنا أشتم أريجها النابع، رفعت عيني باتجاه النوافذ لتروي البهجة نفسي وروحي بألوان لا حصر لها من الورود المُرصعة التي تكسو النوافذ بألوانها الحمراء والبنفسجية والصفراء، كُنت أدمن زراعة الورود لأستنشق روائحها العطرة، أتفقد وأنا مسترقة السمع لزقزقة العصافير التي تتخذ ظل الأشجار مأوى لها، استأنفت سيري للبيت وقرعت بابه حتى تفتح الباب برلنتي، خادمة ماليزية قالت لي ذات يوم معنى اسمها "أغلى أنواع الألماس وأجملها"، كانت لديها بؤبؤان زرقاوان يتخفيان تحت العيون الأسيوية الضيقة والملامح المحددة وذات بشرة خمرية لامعة، قُمت بتحيتها قائلة بالإنجليزية:
- how are you Brlenti ?

- okey miss
استقبلت والدي وأنا أتراقص كطاووس نشر ريشه في شكل مروحي يزهو بألوانه البديعة، اقتربت من والدي ووضعت قبلة على خده المكتنز، رسم وجهه ابتسامة فعانقني مُعقد يديه على ظهري وأنا أميل برأسي على قلبه، بادلني بقبلة وضعها على جبيني وهو يقول:
- عاملة إيه يا حبيبتي؟
- زي الفل.
- جايب لك خبر كويس.
رجعت خطوة للوراء وانعقد حاجباي:
- خير!
- عريس طلب إيدك مني.
لويت شفتيّ ثم زفرت بنفس طال:
- بعد الشر، إيه الكويس في كدا؟
مللتُ من كثرة الرفض، لَمْ أكن مستسلمة لفكرة الزواج من قبل آدم، لَمْ أمانع ولَن أعطي لوالدي الرغبة المطلقة يومًا ولكني كنت أنتظر آدم بتفاحته التي أغـويته عـليها، عضضت على شفتيّ وانعقد حاجباي ثانيةً وأردفت:
- مزهقاك أنا، عايز تخلص مني؟
- فريدة، انتي عارفة انتي عندي إيه، أنا بس نفسي أطمن وافرح بيكى قبل ما اتكل على الله.
طُمس وجهي وقاطعته:
- بعد الشر يا بابا، ربنا يخليك ليا.
أكملت:
- بس مش قلت لي مين العريس.
- شريف، وأنا صراحة كنت موافق عليه وشايفة شاب محترم ومجتهد و...
قاطعته:

- وشريكك.
ابتسمم والدي ووضع يديه على كتفي برفق وأكمل بلطف:
- يا حبيبتي أنا شايفه محترم، هو فعلا شريكي وأنا مأمن له على حاجات كتير وكنت موافق عليه، بس أنا راجل ديمقراطى في القرارات اللي زي دي، ولازم كُنت اشوف رأيك، هي حياتك الخاصة بس هقول إيه طالعة لأمك، كانت الله يرحمها دماغها توزن دهب.
تيبست مكاني وملأ الحزن ملامع عيني، اقشعر بدني وأخذت شهيقًا متقطعًا، تذكرت والدتي التي تركتني أعاني حرمان المشاعر فعاودت رسم بسمة مصطنعة على وجنتيّ وقلت:
- الفاتحة على روحها.
ولا الضالين آمين.
تساقطت الدموع على خدي فعاود والدي عناقي، تسللت إلى غرفتي في الطابق العلوي.
كُنت مستعدة لبروازها الكبير الذي سأصطدم بهِ بمجرد فتح باب غرفتي، عندما دلفت الباب رفعت رأسي قليلًا واقفة شاردة في ملامح صورتها أو صورتي ربما!
ورثتُ عنها كل شيء حتى ملامحها، اغرورقت مقلتاي لتذرف المزيد من الدموع، استسلمت لنفسٍ طال أعقبته تنهيدة كادت أن تقطع أنفاسي، أغلقت باب غرفتي وجلست على الفراش القرفصاء وأنا أتفحص صورتها كأنها الموناليزا تنظر إلي من جميع الاتجاهات.

(٩)

الوقت ليلًا فلم تتضّح الرؤية من بعيد، أنظر حولي بهلع ويجرني رجلان مفتولا العضلات يرتديان ملابس شبه عارية تخفي عورتيهما إن صح التشبيه، يعقدان بسلاسلهما عنقي ويدي ورجلي، يجرانني وأنا أحاول التَشَبُّث في الأرض، بدأت الرؤية تتضّح أمامي، نصعد مرتفع يعقبه طرقة يتزين جانباها بنباتات تتدلى منها سنابل يابسة تلفحها الرياح، وتماثيل تمثل على الجانبين لصقور وكباش بقرون وقطط محنطة فزعت عندما وقعت عيناي عليها، صفائح أشبه بقناديل داخلها نيران تُضيء المكان، متأهبة للانطفاء جعلت الرؤية صعبة ولكن ليست مستحيلة، لَمْ أحدد أخر الطرقة إلا مبنى ضخم بهِ نافذات كثيرة كل نافذة يقف بها رجل، اقتربت لأرى رجُل تترصع ملابسه بالذهب المتلألئ، يجلس على كرسي ذهبي ملكي ذي نقشٍ بديع، ويمسك بيده كأس من النبيذ والأخرى يمسك بها سلاح بعود سميك في أخره حديدة صلبة محددة الرأس، وبجانبه رجلان يقفان بصمت، قصير، أقرع، مُكحل العينين، ودهون بطن كثيرة، تتدلى من عنقه قلادة تحمل في أخرها صليب، لا، لَمْ يكن صليب، شيء أقرب إلى الصليب يعتليه فجوة شبه دائرية، ووجهه دل على سخط رهيب يرتسم عليه وشم لشمس وكأنها مُشعة، مرر يديه على عنقه وأشار كأنه يقول (اذبحوه)، فأمسك أحدهم سيف تلألأت صورتي فيه من حدته والآخر رمحًا يصوبه تجاهي.

استيقظت بهلع قبل أن تطير رأسي في الحلم، ازدردت ريقي بصعوبة بالغة وبسملت بصوت خافت في ظلام دامس ونافذة زجاجية تظهر اكتمال القمر في السماء، تجرعت زجاجة مياه كاملة كانت على المنضدة بجانب الفراش لتجدد ريقي الجاف وتبلل شفتيّ المشققتين من شدة الجفاف، كان الصمت

يخيم على البيت إلا عزيف الرياح بالخارج كنت أسمع صوته المُريب، جلست القرفصاء على الفراش وأنا أحاول تذكر حلم فرعوني ضحكت منه وقلت في ذهني.

- حلم؟ وأيام الفراعنة، طيب ودا هيتحقق إزاي؟ ومن امتى أنا بفتكر الأحلام أصلا؟

تلفتُ بجانبي لأستطلع ساعة الحائط فاختلطت أصوات المؤذنين بأذني لصلاة الفجر قبل أن أرى عقارب الساعة تشير للرابعة فجرًا، جاهدت الشيطان الذي يوسوس لي وقاومت كسلي، خرجت إلى الحمام وقمت بالوضوء، ووقفت أصلي بارتجاف جراء برودة الجو الشديدة وعند الانتهاء من صلاتي رجعت إلى غرفتي ونزلت تحت غطائي كالفأر الفار إلى جحرُه لأعاود استكمال نومي.

استيقظت مرة أخرى عندما كانت الشمس في تأهب للشروق، استطلعت الساعة فوجدتها السابعة صباحًا أزحت الغطاء وجلست على حافة الفراش ودار بعقلي سؤال.

أحلمت؟

لا لَمْ أحلم إلا حلم الفجر الفرعوني.

نصف ساعة مرت على سكوني وتفكيري حتى انسل لغرفتي ضوء طفيف من أشعة الشمس التي حجبتها النوافذ الموارية، قاومت جلستي وذهبت للصالة ليلفت رنين هاتفي انتباهي، لمحت اسم والدتي فضغط على زر الإجابة وأنا أترنح إلى المطبخ لأفتح الثلاجة وأردفت:

- إيه يا أمي؟

التقط زجاجة مياه من الثلاجة وتجرعتها، ثبت هاتفي بين شحمة أذني وكفتي:

- آدم أنا مش هرجع إلا على بالليل.

وضعت الزجاجة مكانها قبل أن أردف:

- ليه؟!

- رحت أزور ولاد خالك.
- ماشي يا أمي سلميلى عليهم.
- ماشي يا حبيبي.
-يلا سلام.
- سلام.
رجعت غرفتي وفتحت الدولاب لأرتدي ثيابي، استقللت المصعد وركبت سيارتي وحين وطأت قدماي الشركة تلقيت بلاغ بذهابي لمكـتب المديرة فـقلت بـصوت خافـت يكـاد أن يُـسمع:
- إحنا لسه اصطبحنا!
سلكت الطريق المؤدي لمكتب المديرة، دلفت الباب عندما أذن لي السكرتير بالدخول، لمحت نظرتها إلي عندما كانت منكسة الرأس بنظارتها المقعرة تستكشف محتوى أوراق بدقة بالغة، لَمْ تعرني اهتمام بنظرتها الأولى فعاودت نظرتها للأوراق وقالت وهي تنظر لأوراقها:
- أتفضل يا آدم.
تقدمت وجلست على الكرسي وأنا أنظر حولي، كان ديكور المكتب قد تغير ووضع على المكتب قطعة حجرية رُخامية كُتب عليها أ/ هالة، ظللت أتلفت حولي حتى وقعت عيناي على تجاعيد وجهها التي تُخفيها بمساحيق التجميل، عندما فرغت من الأوراق التي أسكنتها في درج المكتب قلت لها:
- مبروك على الديكور الجديد.
- آها، التغيير مطلوب.
أطبق الصمت علي عندما رأيتها تستعين بالهاتف:
- اتنين قهوة.
توقفت فجأة كأن الحروف حُشرت في حلقها وأزاحت الهاتف من على شحمة أذنها قليلًا وهي ترمقني من أعلى نظارتها موجهة الحديث إلي:
- مظبوطة يا آدم مش كدا!

أومأت برأسي بالموافقة.
أسكنت الهاتف مرة أخرى على أذنها وأكملت:
- اتنين قهوة مظبوطة.
استعادة وضعيتها بعد أن أغلقت الهاتف ثاقبة النظر إلي قبل أن تبادر بالحديث:
- حالك مش عاجب حد يا آدم.
وقفت وسارت ببطء رتيب مُخلفة وراءها أصوات مزعجة من كعب زادها طولًا لتجلس أمامي وتستكمل:
- غياب من غير ما تبلغ أي حد في الشركة أو حتى تبعت سبب الغياب زي ما يكون بتشتغل في الشارع! الكل اتهمني إنى بتوسط لك وإني مش باخد قرارات ضدك وعايز الصراحة عندهم حق.
لَمْ تكن مجرد مديرة عمل توبخ موظف دائم التأخير والغياب، ومُرتبك الحال، كانت تربطها علاقة مع والدتي جعلتها تتغاضى عن إيقافي أو فصلي من الشركة، استشعرت شيء يجول بخاطري فحدقت إلي، فقطع عامل البوفية نظرتها عندما طرق الباب ودخل فوضع القهوة ومضى خارجًا ثم تابعت قائلة:
- طلبت إجازة وختها بس برضو رجعت أسوأ، فيك إيه؟
- مفيش، اقبلي أخر اعتذار وهواظب على المواعيد من دلوقتى.
تركت مقعدي واتجهت ناحية الشرفة -شرفة مُطلة على فناء واسع تابع للشركة- شاردًا للحظات غارقًا في التفكير حتى اتسعت حدقتاي عندما تركز بؤبؤاي على شخص أعرفه جيدًا غير مُهتم لحديث المديرة:
- أنت زي ابني يا آدم، متخليش حياتك تقف على موقف مُعين حصل، مش هضغط عليك أكتر من كدا، بس اللي عايزاك تعرفه إن الكل فيه هموم ومشاكل، الدنيا مش مستاهلة أننا نتعب فيها غير لربنا، أحنا بنشتغل عشان نرضي ربنا، بناكل عشان يكون عندنا صحة نعرف نقوم بفروض ربنا، مشاعرنا اللي استهلكت من بشر ربنا كان أولى بيها.

مُراد! تساءلت لماذا أتى وقد أخذ إجازة أسبوع، يقبع هنالك ينتظرشيئًا ما.
سهمت المديرة نظرها إلي فارتفع صوتها عندما لاحظت عدم اهتمامي:
- آدم، أنت معايا!
أفاق صوتها شرودي فانتبهت إليها وقلت بتلعثم:
- آها، أنا معاكى، لا أنا مش عايز إجازة، وفعلا أنا تعبان الفترة دي بس الإجازة بتتعبنى أكتر، أوعدك أنى هلتزم بمواعيدي.
- ماشي هسيبك على راحتك، تقدر تمشي واعتبر النهارده إجازة من الشغل.
انصعت إليها فغادرت الشركة مستقل سيارتي من الجراج، استعنت بنظارتي لأخفف حدة الشمس ومررت سيجارة في فمي، تحركت وأنا أتابع مرآة سيارتي، لأرى مُراد مستقلًا تاكسي فحدثت ذهني:
- مُراد! طيب هو ليه استنى تحت ومش عبرني حتى؟! وليه بيمشي ورايا دلوقتى زي ما يكون بيراقبني وهو في إجازة إيه اللي جابه الشركة أصلًا؟!
التقطت عيناي من المرآة نظرته التجسسية، وقفت بالسيارة في رُكن من الشارع وأغلقت منافذها السوداء التي تتيح لي فرصة رؤية العالم من الداخل وعدم رؤيتي من الخارج، أسكنت رأسي للوراء مُغمض العينين حتى نال الأرق مني، أرق التفكير فتمتمت لنفسي:
- دكتور صدق إني مريض، صديق صدق دكتور إني مريض.
شلل جزئي انتابني.
صُعقت مُضطرب عندما نطقت بصوت مُتهدج:
- ليه ماكونش أنا مريض بجد! يعنى كل اللي بيحصل دا وهم!

* * *

بتوتر شديد انتظر.
على الطريق الأسفلتي اللامع في وسط شارع هادئ لا تسمع فيه إلا أصوات زقزقة العصافير التي تتخفى تحت ظل الأشجار هربًا من حرارة الجو، والأشجار من الجانبين جعلتنا نستظل تحتها، لم يكُن هناك لا مارة ولا سيارات تزعج

آذاننا بأصوات تحذرياتها، فقط نقف في وسط الطريق وأمامنا بمسافة ليست بالقصيرة يقف آدم دون حراك أو خروج من سيارته في رُكن من الشارع كأنه ابتلع عن طريق دوامة بحرية أخفته عن الأعين وأنا دون حراك مُقيد عن المساعدة، قابعٌ في التاكسي على مسافة بعيدة ولكن أتاحت لي الفرصة أن أشاهد ما يحدث هناك عند السيارة التي يمكث فيها آدم، موجة حارة جعلت الجو شديد الحرارة والهواء محمل بأتربة وغُبار جعلني أغلق نوافذ التاكسي، استطلعت ساعتي، وحسبت فارق الوقت.

ربع ساعة يمكث في سيارته دون حراك، غلق النوافذ جعل الرؤية غير مُتضحة بل مستحيلة، فانتابني قلق منتظر أن يقع أي تغيير.

بينما كان آدم مختفيًا في سيارته كنت أفكر في حالته النفسية ومرضه الذي لا أظن أنه مرض، فهناك طبيب يُعالجه، ولكن لَمْ أعلم من أي مرض يُعالج! وفريدة التي يُحبُها وأنا الذي أتجسس عليه! جميع ما يحدث مع آدم حقيقي لا أوهام أو محض خيال!

دارت الأفكار في رأسي عندما طال مكوث آدم في سيارته، أيكون خرج من السيارة دون أن أراه؟ أم ارتدى على رأسه طاقية الإخفاء فاختفى؟ أم غفا في سيارته؟ أم أنني جُننت! انتزعني سائق التاكسي من أفكاري عندما أردف بصوته الأجش:

- أحنا واقفين في نصف الطريق وفي عربية جاية ورانا!

نظرت ورائي لأرى سيارة تُريد أن تتابع طريقها فقلت للسائق:

- أركن على جنب يا اسطى.

استدار ليرمقني بنظرة مريبة جعلتني أرتبك، تساقطت بعضُ قطرات العرق على جبيني وأنا أحاول الاتزان والمصابرة أكثر من ذلك.

* * *

أغمضت عينيّ للحظات لتتوهج أحداث لَمْ أعرف محل صدقها من وهمها، أدركت الحياة من منظوري الخاص، فلسفتي وهمية، مكان تعيس تهديك ما

تشاء لتنتزعه دون رحمة، لماذا نعيش؟ سؤال طرحته على نفسي لم أجد له إجابة إلا وكأن هاجسًا بداخلي أو قريني يتحدث إلي.
إذا لَمْ تأت بإجابة مقنعة لهذا السؤال.
فاعلم أنك ستظل تعيسًا!
مُجرد أوهام.
أوهام، ظلت الكلمة يرن صداها في أذني وتسيطر على مخيلتي، نيران تلهب مُخي وتُسيطر على تفكيري، وتُشل حركتي.
أصبحت كمركب شريد في عرض البحر يواجه أمواج عاتية ما تلبث أن تهدأ حتى تتابع موجة أخرى وأنا على متنه أترنح منعدم الاتزان أكاد أن أسقط، انتابني شك يقيني بحت، ظللت أجاهد للعثور على إجابات مقنعة، فصل رنين هاتفي تفكيري لتلتقط عيناي اسم ألفته (فريدة)، الحب والحياة والدليل الوحيد لعدم خلل قواي العقلية، تـركت هاتفي يبعث ضوضائه وأنواره وظللت مغرقًا في التفكير.

* * *

مللت الوقوف قرابة النصف ساعة بلا فائدة، لا حراك، لا إشارة تفيد بشيء حتى تحركت بالتاكسي عائدًا إلى العيادة.

* * *

أحب أسلوب إيطاليا في كرة القدم، أسلوب دفاعي بحت يعقبه لدغة عقرب تنهي المبارة لصالحها، رمقت مرآة سيارتي فأتاحت لي أن أرى التاكسي يزحف للخلف، تلقائيًا أخذت أنامل رجلي تداهم دواسة الوقود.
الوضع تبدل، أصبحت أنا من أتابعه من مسافة بعيدة، ساورني شك أنه طريق الطبيب، حتى وقف بالتاكسي أمام العيادة، أكاد أكون فهمتُ ما يحدث، نزلت من سيارتي وتتبعته إلى العمارة و قبل أن يغلق المصعد وقف كف يدي حائلًا بين إغلاق الباب، فتحت الباب ووقفت بجانبه، اتسعت حدقتاه حتى كادت أن يخرج بؤبؤاهما، ازدرد ريقًا كاد أن يغرقه وتصبب العرق

على جبينه كسحابة تفضي بأمطارها، انتابه توتر شديد، حشرت الكلمات فلم يتفوه بكلمة، واقفًا بجانبي حتى كاد أن يبلل نفسه، استنشق نفسًا لَمْ يزفره حتى قطعت توتره فتمتمت:

- الدور الخامس يا مُراد، طريقنا واحد.

ينظر إلي بوجه زاد شحوبه وعرق تدلى بكثرة، لَمْ يلفظ فمه بكلمة، أطبق صمت كسره صوت صعود المصعد عندما ضغطتُ على زر الطابق الخامس.

انقضت دقيقة.

واقفان يترصدان بعضهما بإمعان، طبيب مندهش يصر على أسنانه عندما رأني أنا ومُراد حتى أدرك وقوع شيء ما، استعاد تماسكه أمامي محاولًا أن يداري ارتباكه وعقله ما زال يفكر.

انقضت دقيقة أخرى.

تتبادل نظراتنا لفترة صمت طالت قطعها دخول حسن من الباب الواسع للحجرة ليبلغ بوجود بعض الحالات المنتظرة فطلب الطبيب تأجيلها لبعض الوقت، واقفٌ بطول تعدى الطبيب ببعض السنتيمترات التي أوضحت الفارق بيننا، يرمقني بشدة حتى بدأ يفقد الطبيب تماسكه وبدأت تهبط قطرات العرق على جبينه ليسير باتجاه مكتبه قاطعًا فترة الصمت قائلًا:

- أزيك يا آدم؟ إيه سر الزيارة المفاجأة دي؟

فتح درج مكتبه مدعيًا وضع بعض الأوراق من على المكتب ليحاول إخفاء ارتباكه حتى رفع عينيه ببطء ليأذن لي بالجلوس فاستجبت وجلست وأنا أقرع يدي قائلًا:

- شاطر يا دكتور.

التفت لمُراد ثم اعتدلت للطبيب واستكملت:

- دكتور وهم نفسه إني مجنون، وخلا صديقي يصدق إني مجنون ويتجسس عليا، المهم مُراد قالك إني مش بخرف! وإني مش بتخيل! ووصف لك اللي شافه وأدى دوره ولا لسه؟!

أشعل الطبيب سيجارة بيد مرتعشة وهو ينفث دخانها بارتباك قائلًا:
- أهدا يا آدم.
علا صوتي ليسترق القابعون خارج الحجرة السمع:
- وكان لازمته إيه إنك تخلي صحبي يتجسس عليا!
- يا آدم انت في مكان محترم وميصحش اللي بتعمله، احترمني يا أخى.
- وأنت مش احترمتني ليه؟
التفت برأسي قليلًا صوب مُراد ثم أردفت:
- وأنت يا مُراد عاملتني على إني مجنون وعندي أوهام ورايح تشتغل مع واحد مجنون!
- أنا مسمحلكش بالإهانة دي.
قطع رنين هاتفي حديثنا فاستطلعت اسم فريدة، وضغطت على زر الإجابة:
- آدم أزيك؟
- ويا ترى إنتي كمان يا فريدة جزء من العلاج وهو اللي حطك في طريقي!
- إيه؟ آدم، مين معايا؟
قاطعني الطبيب ولفظ:
- لا يا آدم، فريدة مش جزء من العلاج، فريدة الجزء الحقيقي في حياتك.
أعدت وضع الهاتف على شحمة أذني مرة أخرى لأستمع لفريدة:
- هو في إيه يا آدم؟

* * *

في السيارة.
أجلس منكسة الرأس، أزدرد ريقي من حين لآخر، أقود بخمول انتابني جراء يوم من العمل الشاق وحرارة الشمس الحارقة التي كادت أن تفحم سيارتي، خُرقت أذني من أجراس تنبيه السيارات المجاورة وكثرة مواصلات النقل العامة التي تحمل الموظفين والطلاب ويعج الطريق بالفوضى والازدحام في هذا الوقت تحديدًا، انتاب رأسي آلام الصُداع المزمن حتى وقعت عيناي على علبة

دواء تستخدم لهذا الغرض فابتلعت قرصًا واحدًا منها، أخذت شهيقًا نم عن إرهاق، وأنا أتلوى كالثعابين بين السيارات هربًا من الطريق العسير والباعة الجائلين المتراصين على جانبيه، ازداد عداد السرعة عندما سلك الطريق أمامي،اقتربتُ من تقاطع للطريق لَمْ ألتفت إليه حتى ظهرت عربة خشبية الصنع يجرها حصان وقف مكانه فجأة، لتتسع مقلتاي ويقع الهاتف من يدي، حتى صرخت صرخة كادت أن تُخرج حنجرتي.

* * *

في العيادة.

أحسست بانعدام الدم في جسدي وسمعت دقات قلبي تخترق قفصي الصدري، شعرت بدوار الدنيا كدوار البحر، شعرت أنني ولأول مرة تطأ قدماي الأرض من صراخها كأنها تخرج حشرجة الموت، تصلبت مكاني كصنم اللات عند قريش، لا حراك، لا نفع، لا ضرر، حتى حدثت المعجزة المنتظرة وتحركت شفتاي المُرتعشة:

- فريدة!

* * *

أصبحت السيارة كورقة مكورة في يدي مدرس ألقاها في وجه طالب بليد، حطامها كشف عن الفاجعة وأنا بالداخل أذرف دمًا ليس له أخر، حتى وصلت سيارة الإسعاف بصوت بوقها المزعج الرتيب لتفسح الطريق ليخرج رجلان انتشلا جسدي من السيارة ليضعاه على سرير مُتحرك وهما يسعفاني داخل السيارة، تكممت بقناع الأكسجين وانتقلوا بي إلى المستشفى.

* * *

في العيادة.

ما زال تردُد صدى صراخها ينبع بداخلي، كهف أجوف يزيد الصوت حدته فيه، أقف مضطرب جاحظ العينين، تبتعد شفتاي كقناة يعبرها الهواء لداخل

فمي، تزداد ضربات قلبي بشدة، علق ريقي في حلقي ولَمْ أستطع ابتلاعه، انزلق هاتفي من على أذني ولَمْ يرف جفناي مطلقًا، اندهش الطبيب ومُراد الذي أردف بحذر:

- إيه اللي حصل يا آدم؟

أجبتُ تلقائيًا:

- فريدة عملت حادث.

رغم أنني لَمْ أتأكد من أنها حادثة إلا أنني استشعرت ذلك، فسرت نبضات قلبي السريعة ما يحدث، توقعت من صراخها الذي ما زال يتردد صداه فيقشعر بدني.

أحلمت؟

لا لم أحلم.

أتذكرت؟

لا لَمْ أتذكر.

أشفيت؟

ربما، لا أعلم.

أفقت من شرودي عندما تمتم مُراد.

- مستني إيه؟ اتصل بأرقام المستشفيات وشوف في حالة عملت حادثة دلوقتي ولا إيه!

كانت الساعة السادسة عند قدومي للمستشفى.

انتبهت حواسي على صوت نبضات قلبي السريعة، امتزجت بأذني آلام المرضى وعويل أصدقائهم وأقربائهم، تحركت أنفي حينما استنشقت رائحة المطهر التي تكسو المستشفى، أهرول، ألهث كالكلب وراء عظمة، أسير بين العنابر واحدًا تلو الأخر، سأراها حتمًا، مستلقية على الفراش الأبيض! ظللت أركض وأنا أواري الأفكار عن عقلي، بدأت تخور قواي وتبطؤ قدماي من وقعهما حتى مثل أمامي طبيب برداء أبيض متسخ، رأني متلهف يكاد أن يسترسل

لعابي من فمي فاقترب وأنا أسأل بتلهف:
- حالة عملت حادثة من حوالى نصف ساعة؟
قبل أن أكمل قاطعني مُشيرًا ناحية الجهة الغربية لأدلف ممر حتى توقفت عندما رأيتها تسترخي على فراش مُتحرك يُجر على أربع عجلات من قبل ممرضتين وطبيب يلحق بهم بثوبه السكرابزي الذي يستخدم خصيصًا في غرف العلميات، أسرعت في سيري فرأيت الجميع ينظر بوجوه شاحبة وسكون خيم على المكان وأنا أقف مذعورًا وقلبي مثل البيـانو.
ساعة.
ساعتين.
تشير عقارب الساعة إلى الواحدة بعد منتصف الليل حتى خرج الطبيب من غرفة العمليات فاستقبله وأنا أدهس سيجارتي تحت قدمي.
- خير يا دكتور!
أجاب وهو يُنزل كمامته عن وجهه ويطمئن الحاضرين قائلًا:
- خير الحمد لله، حصل كسر في رجلها وأيديها وساعة تفوق من البنج وتقدروا تشوفوها بإذن الله.
تقبع داخل غرفة المرضى التي تتكون من فراش بجانبه مكتب صغير مكسو بلفائف الورود وساعة مُعلقة على الحائط لا تسمع إلا أصوات عقاربها، تغط في سبات عميق كسبات الدببة جراء البنج المنوم بوجه ملأته الخدوش وجسم مُنهك جراء عملية استغرقت ساعتين استنزفت قواها، ركعت بجانبها أتمتم بصوت خافت وذرفت الدموع التي ملأت عينيّ، أسندت رأسي على السرير لأغوص في أفكاري، حالة سكون أطبقت على الغرفة، قمت من ركعتي وأنا أدور بحلقات في الغرفة حتى انتفضت فجأة جراء صوتها الخافت كأنه يناجيني:
- آدم.
ركعت على قدماي مهرولًا إليها قائلًا بلهفة:

- فريدة.
ساد صمت للحظات قبل أن أستكمل:
- فريدة أنا آسف.
تنحنحت فأكملت:
- فريدة انتي الحاجة الوحيدة اللي خرجتني من القصر القديم اللي مليان صور وذكريات قديمة، انتى اللي نفضتي التراب من القصر دا، تُراب الذكريات.
قالت بصوت مبحوح:
- متتأسفش يا آدم.
- فريدة، أنا شوفتك في حلمي قبل ما أقابلك في الحقيقة، يمكن القدر عمل كدا لإني كُنت محتاج إني أشوفك في الحقيقة عشان كدا شوفتك في الحلم.
قاطع دخول الطبيب للغرفة حوارنا فقال:
- إزي حالتك دلوقتى؟
أجابت فريدة بصوت مُتقطع:
- الحمد لله يا دكتور.
اقترب بسماعة معلقة على عنقه وهو يزج بها في أذنيه ليستشعر نبضاتها ثم أردف:
- عال.
- تقدر تخرج أمتى يا دكتور؟
- يومين بالكتير إن شاء الله.
كان ذلك قُبيل الفجر، أجلس بجانب سريرها، تثاءبت وشعرت نعاسي ولكني لَمْ أعط فرصة لعينيّ أن ترمشا، أصررت على البقاء والمبيت بجانبها رغم عدم وجود سرير آخر، انتظرت حتى أغلقت جفنيها، لبثت في سبات عميق بعد محاولاتها لكي أذهب لغرفة يوجد بها فراش لأستريح عليه، سكنت بجوارها مستند بظهري على الفراش، مستلقي برأسي للخلف حتى ثقل جفناي وأُغمضت عيناي رغمًا عني.

أيقظتني مُمرضة بعد ساعة من النوم ومنعتني من النوم داخل الغرفة فاستيقظت فريدة على عدم رضاي حتى رجتني أن أذهب إلى المنزل وآتي في اليوم التالي، فوافقتُ رُغمًا عني. ركبت سيارتي ورجعت إلى الشقة، كانت والدتي نائمة فدلفت باب غرفتي ونزلت تحت الغطاء.

(١٠)

استيقظت وأنا أزيح أغطيتي، وقفت رغمًا عن قواي الهزيلة، لَمْ أقدر أن أستكمل دقيقة من الوقوف فارتميت على المنضدة المجاورة لفراشي، رأت عيناي جريدة التقطتها وفتحت صفحاتها، أغمضت عينيّ لوهلة لأزيح عن رأسي الصداع، عاودت النظر في الصفحات فلم أقدر على القراءة، الرؤية لَمْ تتضح أمامي، السطر أصبح سطرين، والحروف تبدلت معالمها والكلمات أصبحت متشابكة كوصفة مدونة من قبل طبيب، عبرت أشعة الشمس لغرفتي فوضعت يدي كي أحتمي منها وأنا أستطلع الساعة فتذكرت عملي، لم أقدر على الحراك، لبثت مكاني بلا حراك حتى غفوت.

أيقظني طرق الباب فتحاملت على نفسي، فتحت الباب فصدني ساعي البريد وأعطاني جواب أخذته وجلست على المنضدة أتفحصه.

"السيد/ آدم يوسف عبد القادر

لاحظنا في الآونة الأخيرة تدني مستوى نشاطكم المعهود وبدا واضحًا التقصير في مهامكم وواجباتكم الموكلة إليكم وعدم إنجاز مهامكم الوظيفية على الوجه المنشود، وعليه يرجى توضيح أسباب التقصير في العمل، حيث أن هذا التقصير من شأنه أن ينعكس سلبًا على أداء العمل في القسم والتأخير في إنجاز المعاملات والمسائل وتعليقها حتى إشعار آخر، علاوة على الانعكاسات السلبية على عمل الزملاء والضغط عليهم بسبب التأخير الناجم عن التقصير، وعليه يرجى توضيح الأسباب التي أدت إلى التقصير في العمل في مدة أقصاها يومين من تاريخ استلام الإنذار.

إمضاء مديرة الشركة.

دلفت غرفتي قبل أن ألقي الجواب بإهمال على الطاولة لأستلقي على الفراش

حتى نمت ساعتين.
النوم الهروب الوحيد من الحقيقة ومن الأوهام القابعة بداخلي، إن وجدت.
استيقظت لأتحسس بأطراف أناملي علبة سجائر على الطاولة فوقعت قبل أن تلتقطها يدي، جلست على الفراش والتقطتها ومررت واحدة في فمي لأزيح الصداع عن عقلي ويتسرب نيكوتينها بداخلي، ترنحت إلى الحمام لأجد المياه لا تصل للصنبور فرجعت غرفتي وفتحت الدولاب، ألتقط مرادي وأرتدي ملابسي، أخذت سيارتي وذهبت للعمل، وحينما وصلت استقبلني الموظفون بنظرات لم تكن معتادة، هجومية - ظننت- رمقت مُراد باشمئزاز وأنا أواري عيني عنه وأكمل سيري لمقصدي، أربع درجات من السلم تفصلني عن مكتب المديرة درجتهم واستأذنت السكيرتير منها عبر الهاتف فسمح لي بالدخول، دلفت الباب بلحيتي كثيفة الشعر، وقفت للحظة وهي ترمقني بترقب خلف نظارتها لتعود لقراءة ما كانت تقراءة وهي تقول:
- اتفضل يا آدم أقعد.
جسلت على الكرسي ولَمْ أنتظر أن تتفوه وتبادر بهجوم كلماتها، جعلني الصداع أوفر ما سوف تبادر به من حديث فبادرت بوضع مظروف على المكتب فألقت نظرة حائرة له قبل أن ترمقني بترقب قائلة:
- إيه دا يا آدم؟
قاطعتها:
- استقالتي.
عبرت كلماتي أذنيها قبل أن تعطيني اندهاشها، هزت رأسها وتبدلت ملامح وجهها بالشفقة، انتظرت ثواني ربما كانت تجمع فيها بعض الكلمات التي قطعتها عليها فأردفت:
- قلتوا إني مقصر فعلًا في شغلي وأنا مش هقدر أفيد الشركة في الوقت الحالي و.
قاطعت كلامي:

- فتقوم مقدم استقالتك، دا في كتير شباب محتاج شغلك!
- الحكاية إني فعلا تعبان ومش هقدر أفيد ولا اشتغل.
- الشغل دلوقتى تعب، دا انت اللي قولت مش عايز إجازة عشان بتتعب أكتر!
- معرفش، بس ياريت تقبليها.
- متعرفش!
أكملت:
- أنا اديتك حلول كتير وانت رفضتها وأنا هقبلها من غير ما تقول يا آدم واتمنى ليك التوفيق في مكان تاني.
قُلت بهدوء أو ربما ببرود أعصاب:
- مش هكون في مكان تاني.
- هتقفل باب رزقك.
- موضوع الشغل مش في دماغي دلوقتى أنا تعبان ومحدش يعرف فيه إيه، وباب الشغل هيكون موارب.
- خد إجازة عمل بدون مرتب.
- معرفش امتى هتحسن.
- هو مين اللي المفروض يكون متمسك وخايف على شغله.
- أنا، بس أنا مش هقدر الفترة دي خالص ومعرفش امتى هكون مستعد إني أمارس حياتي الطبيعية تاني، وأنا عندي تقصير وغياب وعدم التزام بالمواعيد زي ما الإنذار مكتوب فيه.
- دا قرارك النهائي.
- اها.
- تمام زي ما تحب.
استأذنتها بلا رجعة، لا استيقاظ مبكر يوميًا، ولا عمل يرهق جسدي، ولا زيارة ساعي البريد لي ثانيةً، غادرت تاركًا خلفي مُراد، المديرة، عملي، ارتديت نظارتي

عندما خرجت من الشركة لأحمي عينيّ من الشمس الحارقة، استقللت سيارتي من الجراج، سرت في الطرقات دون تحديد مقصد، ذهبت لأكثر من مكان فلم أجد ضالتي التي لَمْ أعرفها يومها، اتخذت من كوبري استانلي ملجأ ألوذ به ولو لبعض الوقت عندما داهمني غروب الشمس والسماء المكسوة بخيوطه البرتقالية حتى اختفت الشمس ومعالمها وتلألأت النجوم في الفضاء في صمت لَمْ يقطعه إلا عزيف الرياح، يبدو أن فانلة بيضاء يعتليها قميصًا لَمْ يتصديا لبرودة الهواء المتزايدة حتى تجمدت أناملي وغابت الدماء عنها، ظللت ماكثًا مكاني لوقت لَمْ أستشعر كم كان؟ أطال أم لا؟ أوصيت بفنجان قهوة من أحد الباعة الجائلين فأتاني به، أبحت لرجلي الحراك دون تحديد وجهتي حتى أخذتني لأدلف ممرًا أسفل الكوبري يؤدي للصخور المتراصة على البحر منعًا للتآكل حتى لمحت لوحة خشبية كتب عليها:

"منطقة عمل، ممنوع الوقوف".

لَمْ أعر اهتمامًا لها، ولا اهتمامًا للقوانين فتعدل هذه اللوحة وجهتي فأكملت خطاي باتجاه الصخور، وضعت يدي في جيبي وأخذت سيجارة من العلبة الملتوية فأخذت أنتقي سيجارة لَمْ تتأذ حتى التقطت واحدة لَمْ أجد سواها فأشعلتها بقداحتي ثاقب النظر للنيران التي انطفأت رغمًا عني بواسطة الرياح الهائمة كالنسور، سحبت نفسًا طويلًا حتى اعتدلت نسبة النيكوتين في دمي، ضرب الهواء أضلعي بلا رحمة واصطكت أسناني من شدته، اقشعر بدني -بخلاف ارتجافه- دون تحديد سبب القشعريرة ولكنها لَمْ تكن بسبب هطول الأمطار ولا شروع الأمواج ورذاذها على وجهي، تحسست روحها تطوف أرجائي وأسمع صوتًا كُنت معتادًا عليه، "مجرد أوهام"، قلت لنفسي قبل أن تسري مرة أخرى القشعريرة في بدني، استشعرت طيفها يحوم في سمائي المحيطة، وقتها كانت السماء صافية لا نجوم ولا غيوم والبحر صافيًا وأمواجه هادئة، أسمع ترددات صوتية داخل نطاقي أجهل مصدرها، ليظهر طيفها فجأة وهو يحوم حولي برداء أبيض مُتحرر، رداء أظهر ملامح ثدييها من ضيقه، مُتسع

كلما نظرت لأسفله ويترنح به الهواء يمينًا ويسارًا كيفما شاء، لمحت وجهها يفيض بنوره لينير السماء عاليًا ويعكس البحر صورتها كأنه مرآة لها، ظننت في نفسي الهلاك، أن تم إزالة الغشاء الحاجب عن رؤية الأجناس الأخرى.
رأيت شفتين ممتلئتين أضيفت إليهم زبدة الكاكاو، من بياضهما يشع ضوء جعلني لا إراديًا أن أحجبه بيدي، ابتلعت ريقي من هول المنظر، وظلت حدقتاي تتسعان حتى أطبقت على شفتي بغضب وجحظت عيناي لتمتلئ بالدموع فتشع متلألئة كعيون النمور تحت قمر غابات الهند الدامسة الظلام.
ثلاث دقائق من عزيف الرياح المُوحش في الظلام وأصوات تلاطم أمواج البحر مع بوح اسمي على لسانها،
لتكتمل النوتة الموسيقية.
- آدم. آد.آ..
- لمياء.
أطلق لساني اسم لمياء تلقائيًا رغم أنني لَمْ أحدد الملامح بدقة، خفت الصوت تدريجيًا حتى اختفى فقاومت ثقل جفني وفتحت عيني على ظلام دامس في سماء صافية ذرفت أمطارها وقمر على قدر من الإضاءة يقبع بعيدًا حتى هدأت رعشتي محاولًا استيعاب ما حدث!
أين ذهبت؟
أكُنت أتخيل!
أم أنني في حلم لَمْ أستيقظ منه؟
أم.
صعقت عندما تذكرت كلمات الطبيب.
ظل ذهني يراودني حتى كدتُ أفقد عقلي!
- ممنوع الوقوف هنا يا أستاذ.
قال أحدهم فجأة فارتعدت خوفًا ولفظت أنفاسي بصعوبة ودق قلبي كقنبلة نووية عندما تكلم هذا الكائن القابع خلفي حتى تحسست لزوجة قهوتي

الباردة على بنطالي، استدرت وأنا أضع يدي على لحيتي المُشعرة ليستشيط غضبي وأنا ألمح وقفته الحائرة بتمعن لأرى في بؤبؤيه المهزوزين خوفًا من أن أكون مختلًا عقليًا فأواريه التراب، صوبت نظري تجاهه وهو يعيد كلامه محاولًا أن يتسعيد توازنه، تركت أفكاره تتخلص منه ببطء ووضعت يدي في جيبي، التقطت منديل مسحت به بنطالي وتحركت من مكاني تاركًا ورائي طيفها وصوتها وذلك الكائن.

دلفت ممر عودة الكوبري وركبت سيارتي، استطلعت ساعة صغيرة معلقة لأجد عقاربها تُشير للتاسعة فذهبت إلى فريدة في المستشفى للاطمئنان عليها .

أكره رائحة المطهر الكئيبة، ما زال يلهب ذكرياتي المريرة عندما كنت قابع بالأيام في المستشفى مع والدي، لم يكُن أحد بالمستشفى إلا بعد الممرضات، فقط حركات بطيئة وأصوات يتردد صداها تأتي من بعيد، مررت في ممر ضيق جعلني في مواجهة غرفة فريدة، فتحت باب الغرفة ببطء حتى لا أزعج منامها، دخلت لأجدها تستلقي في نومٍ منهك وقطرات العرق تتصبب على جبينها، فتحت النافذة لتسمح ببعض الهواء الرطب ليلطف جو الغرفة، لمحت بطرف عيني قلم وأوراق موضوعة على الطاولة الخشبية بجانب الفراش فمسكتُ القلم وملأت سطورها بالحبر الأزرق بعبارات ورسائل.

(II)

وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ.

الكُل يلصق ظهره بالجدار، تستشعر نعاسة وشحابة وإرهاق ووجوههم، صَرَع الوالد على صوت زوجته حينما اندلعت صرخة دوت بشدة، ما زال الطفل في رحم الأم، يُجاهد معها في الانزلاق وهي تُحاول أن تلقي الطفل خارج جوف رحمها، تَركل وترفس دون جدوى، همهمات بالخارج، وزعيق واندلاع صرخات مِن حنجرة الأم المسجى جسدها على الفراش بالداخل، تزداد رجفة جسدها، تخمش بأظافرها المُحيطين، تجز جزًا على أسنانها وتقضم الوسائد، وتُمزق شرشف الفِراش بأسنانها الحادة كنصل السكين حتى تم ركل الطفل كالكرة خارج رحمها إلى الحياة، مكور ولزج، قبض الطبيب قدميّ مضمومتين وجعل الدنيا من حولي رأسًا على عقب، وجهي في الأرض وقدمي في السماء، لطم مؤخرتي بيده، بينما أخذت والدتي أنفاسًا مُتعاقبة وتنهدت قبل أن تمص ريقها.

نحيت بكائي الذي طال ثوانٍ بعدما هلل الحاضرون وربت الجميع على كتف والدي، اقترب من والدتي، مسح عرق جبينها، أخذني مِن جوارها، وحملني بين يديه المفرودتين وهو يقبل خدي بلطف.

نظر لوالدتي وقال:

- آدم، هسميه آدم بكورتنا اللي مجتش غير بعد مدة.

ومِن وقت أن انزاح آدم من الرحم انقطعت دورة الحياة في بطن أمه، وبدأ الحياة على أحداث يستشعر إنه عاشها مِن قبل وظلت ترافقة تلك الظاهرة

"ديجافو"، بعدما عاش الحياة على نمط" تجربة ما قبل الولادة"، التي تقول أن الروح قبل أن تتخمد فى الجسد تعيش كُل لحظة سيعيشها الإنسان، ولكن عندما تدخل الجسد تنسى الحياة التى عاشتها فى السابق وتبدأ حياة جديدة، وقد تحدث بعض اللحظات التى يتذكرها الإنسان أنه عاشها من قبل، ولكن لا يتذكر متى وكيف وأين؟
ويقول آخرون أن الإنسان عندما يكون فى بطن أمه وأثناء النمو يُشاهد شريط حياته بالكامل، ولكن لا يتذكر منه إلا "الديجا فو"، أي بعض اللحظات المواقف.

***

بعد سنوات كثيرة.
عِند كِبَر آدم.
لَمْ أعد أحتاج إلى منبه يُقظني بل لعبت الكوابيس هذا الدور!
استيقظتُ في صباح اليوم الثاني من شهر نوفمبر،عندما انحسر ستار نافذة الغُرفة مُعلنًا عن قدوم أشعة الشمس، فأظهرت قسمات وجهي، فاتحٌ عينيّ الخضرواتين مُستيقظًا من نوم غططت فيه بعمق. لَمْ أستشعر مرور الوقت حتى تحسست ثقل جفني وهي تفتح ببطء، وبحركة لا إرادية هدفها ملء رئتي بالهواء، تثائبت حينما أرهفت السمع لصوت من غرفة الطهي عابرًا جنبات طرقة المنزل إلى غرفتي قائلًا:
- متخرجش إلا أما أحضرلك الأكل يا آدم. قالت والدتي.
لم أعر اهتمامًا لما سمعت. تحاملت على ذراعي لكي أزيح الغطاء القرطفي السميك الذي كنت ألتحف به، ووسوست بشفتي لكي أستعيذ بربي من حلم اطلعت عليه ولَمْ أتذكر أحداثه جيدًا، وفي غرفة خيم الهدوء فيها ودمس الظلام جنباتها لَمْ يكن بها إلا مكتبة كُنت أغوص فيها عند شعوري بالضيق، فكانت شخصيتي المزاجية تجعلني أكُف عن الثرثرة خارج كُتبي، يقبع أمام المكتبة مكتب تناثرت عليه بعض الأوراق التي يعلوها قلم يقف حائلًا حتى

لا تتطاير، وحوض أسماك تعددت ألوانها، فمنهم الزهري والقرمزي ومنهم المائل للاصفرار، ومرآة أصطدم بها كل صباح لأستطلع هيئتي، وبعض الصحف والمجلات مبعثرة على الأرض كانت تتكون غرفتي.

فردت ظهري لأتمطى مُحدثًا بعض الطقطقات، ونهضت من الفراش وأنا أقاوم استكمال نومي، تحسست بأنامل رجلي أسفل الفراش لأجد خُف ثبته في قدمي، وأنا أتأمل صورتي في المرآة، بالكاد كبرت وكبرت همومي وبدا واضحًا على وجهي الشحوب، قاومت جلستي وترنحت كالسكارى إلى الحوض المجاور لغرفتي، بللت وجهي بالماء الفاتر، وفركت فروة رأسي بالماء ثم انغمست بداخل المنشفة لأتجفف. رجعت إلى غُرفتي لأستطلع في المرآة عيني الخضرواتين الهذيلتين، وشحوب وجهي المصفر، وذقن لَمْ تنبت شعيراته بعد، فتحت دولابي وراح بؤبؤاي يتنقلان بين الملابس حتى التقط سروال ذا لون أزرق غامق، وقميصًا بني تتخلله خطوط بيضاء، لمحت الساعة المُعلقة فوق حوض الأسماك فوجدت عقاربها تُشير للثامنة إلا ربع، فهرولت لارتداء ملابسي، حتى لا أتأخر عن الميعاد المُحدد لعملي، حيث كُنت أعمل كمحاسب مالي للشركة المصرية العالمية للاستيراد والتصدير، أودعت يدي في جيب السروال والتقط هاتفي لألمس شاشته لكي أبحث عن رقم صديقي مُراد وباشرت الاتصال به قبل أن أستقل المصعد.

أنهى مُراد اتصاله معي بعد أن سألته عن الأوراق التي طلبت أن يُنجزها لي لانشغالي ببعض الأمور الهامة، أوضح الانتهاء منها وهو في مقر الشركة ينتظر قدومي.

دائمًا ما كان مُراد الاستيقاظ مبكرًا مِن عاداته، مفعمًا بالحيوية يرتشف فنجان قهوته على موسيقاه الفرنسية المحببة له، وهو يشتم نسيم الفجر العليل، ويستطلع قمره المستنير، والهدوء الذي يعم المكان في هذا الوقت تحديدًا، والهواء النقي الذي ينسل بين فتحتي أنفه دون فائدة للشعر المثبت بها لفلترة الهواء، فهو يُحب أن يستطلع الصباح وصفاء سمائه وإشراق الشمس

التي تضيف الدفء للمكان من حوله،
على الرغم مِن كرهه للعالم المحيط إلا أن قلبه كان ينبض بالتفاؤل، صبور وطموح يحب عمله ويحب من حوله.
تربطنا صداقة قوية حيث ترعرعنا عليها في السنوات الدراسية الابتدائية، علاقة حب متبادلة بين صديقين لَمْ يفترقا مُنذ السادسة من العمر، حتى تدرجنا معًا لنتخرج من كلية التجارة جامعة الأسكندرية، حتى واصلنا صداقتنا بالعمل في الشركة المصرية العالمية للاستيراد والتصدير.
لَمْ يشفع نومه مُبكرًا من الهالات السوداء المتمركزة أسفل عينيه التي كانت تتلون للبني عندما تشع الشمس عليها، كان له بنيان لَمْ يكُن بالطول الفارع ولا القصر تتوسط قامته، وبشرة بيضاء تزينها بقع صغيرة من النمش البني تلفت الانتباه، وشعر كبير مموج يتطاير خلف عنقه وعينان ضيقتان، ذو شخصية مرحة في بعض الأحيان، وجاد مُحب لعمله في أحيان أخرى، يُحب الصلاة ويذهب للكنيسة بانتظام أيام الآحاد، وحضور قُداس المناسبات حتى عندما كان يتعارض مع وقت عمله.
كعادتي التي لَمْ أعرف سواها، مُتأخرٌ، أسابق الوقت حتى يتسنى لي الوصول في موعدي الرسمي للعمل، أزحت الغطاء عن سيارتي البيضاء لتنتفض أتربتها في وجهي فألعن كُل جُنيه دُفع فيها، أستقل سيارتي التي تعددت مُخالفتها المرورية، وأبحت لقدمي أن تُداهم دواسة الوقود ليزداد مؤشرعدادها، دائمًا ما كان يحلو لي أن أُعلي بصوت الموسيقى لتطبق في أذني، وتُزيح الضوضاء من حولي. أغلقت نوافذ السيارة التي لا تُتيح لأحد رؤيتي من الخارج، وبينما كُنت أستمع وأستمتع بالموسيقى بدا لي اهتزاز هاتفي المحمول الصامت؛ فالتقطه لألمح بعيني مَنْ المُتصل، ثوانٍ قليلة أمسكت فيها هاتفي كانت كفيلة بقدوم سيارة من الجهة الأخرى، حين عبر الطريق طفل صغير راكضًا كأنه مُنوم مغناطيسيًا وراء كلب مُشرد يلهس مُسترسلًا في لعابه، اتسعت حدقتاي وأنا أحاول استيعاب الموقف في غضون ثوانٍ قليلة محاولًا مفاداة الطفل، ففقدت

السيطرة على أعصاب يدي لتخفف الـ (air bag) مِن الاصطدام بالسيارة التي تسير بالجهة الأخرى لأنجو بأعجوبة من حادثة جعلت السيارة رأسًا على عقب، ولَمْ تنج من الارتطام والخدوش التي لونتها، عمت الفوضى أرجاء المكان من حولي، والتف البشر حول السيارة كأنهُم يُشاهدون مشهدًا سينمائيًا لفيلم أكشن، زاغت عيناي وأنا بداخل السيارة حتى كدتُ أفقد الوعي عندما رأيت جرح غائر في ساعدي الأيمن، وبعض الكدمات في ساقي المخدوش، وجرح آخر في رأسي خلف بعض الدماء التي تسللت إلى وجهي في خيوط رفيعة حتى انتشلني أحدهم خارج السيارة التي انقلبت في مشهد مأساوي خرجت منه بأقل الخسائر.

امتدت يد أحد المُتابعين ببعض القطن الطبي ونثر على جُرحي بُن ليمنع نزيف الدم كُنت في حاجة إلى كافيينه، وتم سكب بعض المُطهرات الحارقة على جراحي لتخفيف الآلام حتى جاءت سيارة الإسعاف بصوت بوقها المُزعج وانتقلت بي إلى المستشفى، وحين وصلت ألقوني في حجرة موحشة كانت تُشبه تلك الغُرف التي أشاهدها في أفلام الرعب، كان يوجد بها نافذة كُسر زجاجها ودرفتيها الخشبيتين تبعثان الضوضاء كُلما ارتطم بها الهواء، أقبلت مُمرضة بعد قُرابة النصف ساعة، دلفت الباب وهي تحدجني بوجهها الدائري، كانت ذات عينين عسليتين، وبشرة بيضاء خالية من أي شوائب تعكر صفوها، وشعر قاتم السواد يظهر نصفه من قبعة بيضاء، قامت بوقف نزيف رأسي وساعدي حتى دلف باب الغرفة طبيب تقززت من شعر لحيته الطويل الخشن ومعطفه الأبيض المُتسخ المُمتلئ بعبق رائحة كريهة، أقبل مُمسكًا زجاجة صغيرة لها أنبوب طويل وبدأ يضغط عليها مُتمركزًا على موضع الجُروح فعرفت أنه بنج فيما بعد، أجرى جراحة سريعة لعدد من الغرز كأنه يحيك معطف جديد ليستبدله بمعطفه المُتسخ، انقضت ساعتين لَمْ أستنشق فيهما غير رائحة المُطهرات الكريهة وثيابي المخدوشة والمُلطخة بالدماء، حينما غادرتُ المستشفى لم تُساعدني قواي على القيادة، فأوقفتُ

تاكسي رمقني سائقه باشمئزاز، عندما ركبت شردتُ لوهلة وفجأة اندهشت وأنا أعيد ترتيب الأحداث حتى استشعرت مرور هذا الحادث علي من قبل، أو أنني حلمت به من قبل، لَمْ أعرف، ولَمْ أقدر على التحديد!

تمت.

شكر خاص

محمد مجدي، محمد عادل، شيماء خضر، رغداء عادل، منة رامي، محمد يسري، إيهاب عاطف، ريم موسى، فاطمة خالد، هاجر مجدي، أحمد جمال.

للتواصل عبر الفيس بوك٠ ٠.

www.facebook.com/anaemad123

" Emad Roushdy "

فصلة

للنشر و التوزيع

Fasla Publishing & Distribution

تواصل معنا :

01067000701

E-mail -: Fasla .Pub@Gmail .com

Facebook .Com/Fasla .Pub